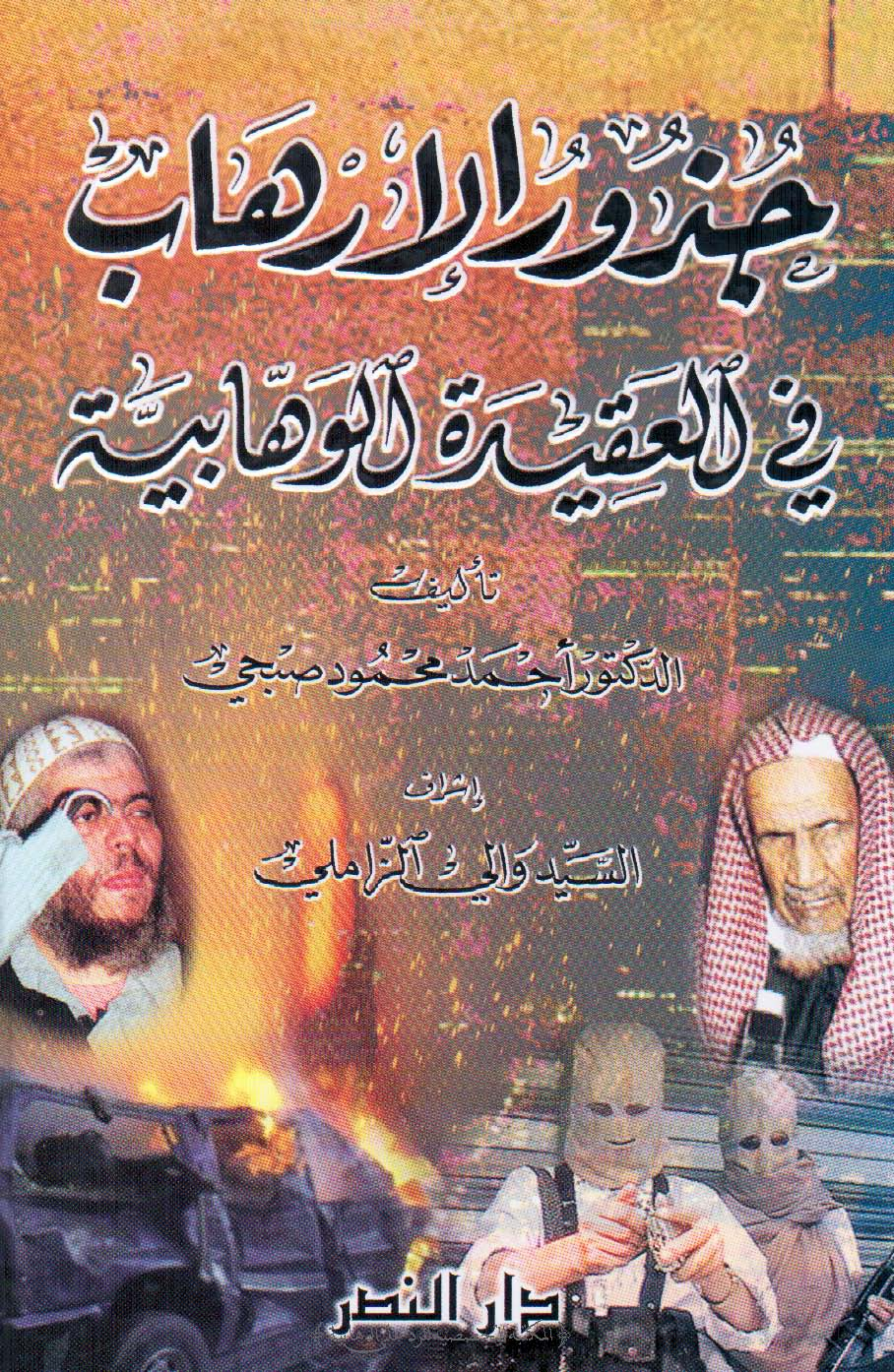
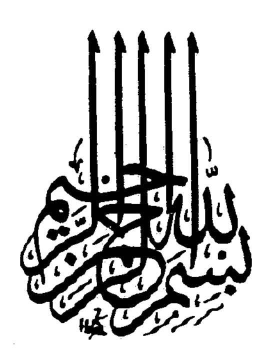


جذور الإرهاب
في العقيدة الوهابية
تأليف
الدكتور أحمد محمود صبحي
إشراف
السيد والي آل الزاملي
دار النصر

جذور الإرهاب
في العقيدة الوهابية



جذور الإرهاب

في العقيدة الوهابية

تأليف

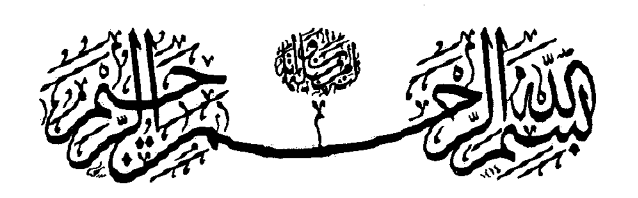
الدكتور أحمد محمود صبحي

إشراف

السيد والي آل الزاملي

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار الميزان - بيروت - لبنان - شارع بعجور



ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا
ٱلضَّآلِّينَ ٧

المقدمة

في أواخر التسعينيات كان الباحثون عن الرأي الجديد في الإسلاميات من الصحفيين العرب والأجانب يتصلون بي وينشرون عني.

وكنت أجيبهم في موضوعات تخصصي «القرآن الكريم وتراث المسلمين وتاريخهم». إلا أنّ بعض الأسئلة كانت تدور حول التطرف الديني المعاصر والوهابية والدولة السعودية.

ومع أنني ضحية للنفوذ الوهابي السعودي في مصر إلا أنّ هذا المجال كان بعيداً عن تخصصي العلمي الذي يتوقف عند نهاية العصر المملوكي وبداية الفتح العثماني لمصر والمنطقة العربية حوالي (٩٢١) بعد الهجرة، أو (١٥١٧) بالميلادي.

كنت مكتفياً بتخصصي في تراث المسلمين السني والصوفي وتاريخ المسلمين في العصر الوسيط دون العصر الحديث والمعاصر.

وكالعادة وقفت في منتصف الطريق بين المتخصصين في التاريخ والمتخصصين في التراث السني والصوفي. المؤرخون يرون أنني شيخ عريق في علوم القرآن والحديث والتفسير والتراث السني والصوفي. بينما يهاجمني خصومي من السنة على أنني «بتاع تاريخ وحضارة».

تناسى الجميع أنّ الباحث في التاريخ الإسلامي لا بد أن يكون ملماً بحقائق الإسلام وتراث المسلمين ومدى التقارب أو الاختلاف بينها وواقع المسلمين في العصر الذي يبحثه.

والذي يبحث مثلاً ثورات الخوارج أو الشيعة في العصر الأموي لا بد له من بحث الإطار الفكري والعقيدي لحركتهم السياسية ـ هذا مع أن عطاءهم الأيديولوجي لم يكن قد تبلور حينئذ ـ فما بالك إذا بحث تاريخ الحركات الأخرى في العصر العباسي وهو عصر تقعيد واكتمال الأيديولوجيات المذهبية، والتي كانت المؤثر الحقيقي لتلك الحركات السياسية.

وتناسى الجميع أيضاً أنّ الباحث في علوم الفقه والحديث والتفسير محتم عليه أن يبحث الأرضية التاريخية التي عاش فيها أولئك الأئمة وأثرت على عقلياتهم قبل أن يبحث تاريخهم الشخصي، ومدارسهم الفكرية، وعلاقاتهم بمن حولهم من الحكام والعلماء وحتى العوام. بدون الأرضية التاريخية يظل البحث في الفقه أو في التفسير والحديث ناقصاً معلقاً في الفضاء بعيداً عن حقائق الواقع المعاش.

ولهذا كان لابد من المزج بين التاريخ والأصوليات في الدراسات والأبحاث الإسلامية كي تتضح كل جوانب الموضوع وأبعاده.

وهذا ما سرت عليه في رسالتي للدكتوراه والتي كانت تبحث أثر الأيديولوجية الصوفية أو التدين الصوفي في العصر المملوكي بكل نواحيه السياسية والدينية والأخلاقية والاجتماعية والعمرانية والثقافية والتعليمية والأدبية والفكرية والفنية والاقتصادية.

وهو أيضاً ما تجري عليه مؤلفاتي والتي تحمل عنوان «دراسة تاريخية

أصولية».

وبسبب ذلك النقص المنهجي في الدراسات الإسلامية ـ التاريخية والأصولية ـ فإنها لا تزال تتمتع بجهل فاضح يؤكده أنهم يتجاهلون الفارق الأساسي بين الإسلام كدين إلهي والمسلمين كبشر يخطئون ويصيبون.

ولا بد أن يتحمل المسلمون أوزارهم، وليس الإسلام مسؤولاً عن هذه الأوزار لأنه أوامر ونواه وقيم عليا ينبغي اتباعها، والبشر أحرار في الطاعة أو المعصية ومسؤولون عما يفعلون.

منذ (١٩٨٧م) بعد خروجي من الأزهر وتحرري من قيودهم الفكرية عزمت على أن أتفوق عليهم وعلى الجميع بمؤلفاتي في تاريخ المسلمين، وفي تراثهم بكل تجلياته وفرقه منذ العصر النبوي إلى نهاية العصر المملوكي.

وجعلت نفسي حكماً قاسياً على نفسي في هذا التحدي. وقررت فيما بعد نجاحي في هذا التحدي. وحققت مقالاتي المنشورة ومعاركي شهرة واسعة لي حيث كان يقصدني الباحثون عن التجديد في الفكر الإسلامي والذين يريدون رؤى إسلامية مختلفة عن كلام الشيوخ المستهلك والمعاد، والذين يريدون مني الرد على الفتاوى المحنطة، والتي لم تعد صالحة للاستهلاك الآدمي.

على أنّ بعضهم كان يرى أنني أستطيع أن أتكلم وأفتي في كل شيء كما يفعل الشيوخ الجهلة الذين يفتون بجهلهم في كل شيء من نواقض الوضوء، وموجبات الغسل، والحجاب والنقاب، وتخضيب اللحية، وتقصير الجلباب، إلى الدردشة على الانترنت، ونقل الأعضاء والاستنساخ، والحكم الشرعي للاستنجاء على سطح القمر.!

لا يستطيع أحدهم أن يقول: لا أدري.

سُئلت مراراً عن الإخوان المسلمين والوهابية، والتنظيمات الإرهابية، والى أي حد يختلف فكرها أو يتنوع، والى أيّ حد يتفق مع جذوره الأولى في العصور الوسطى.

كنت أعتذر عن الإجابة لأنّ تاريخ العصر الحديث خارج تخصصي. وخجلت من نفسي من تكرار الاعتذار، وقررت أن أدخل في تحد آخر هو دراسة الجذور التاريخية والفكرية لمتطرفي عصرنا البائس.

كان هذا قراراً هائلاً لم أجد الوقت لتنفيذه لولا أن أدخلتني الظروف فيه عنوة.

كانت «كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» في جامعة القاهرة تجهز لعقد مؤتمر لبحث «ظاهرة الإسلام السياسي»، وكلفت باحثيها بالكتابة في المحاور المختلفة للموضوع، ومعظمهم ينتمي للتيار السلفي نفسه، ويمثل الجيل الثاني لمثقفي الإخوان المسلمين، وكان المؤتمر فرصتهم لتمرير أيديولوجيتهم باسم الإسلام دون أن يجادلهم أحد في مدى تعبيرهم عن الإسلام، وكان الوقت حينئذ معهم باعتبارهم «إسلاميين معتدلين».

لذا تمّ تكليف باحثة غير متخصصة في الإسلاميات لتكتب في أهم محور وهو «ماهية الحركة الإسلامية وتوصيفها»، وفي آخر لحظة اعتذرت الأستاذة.

وكان الدكتور سعد الدين إبراهيم هو الذي يدير تلك الجلسة فاقترح عليهم دعوتي لأتكلم عشرة دقائق لمجرد سدّ الفراغ اتصل بي الدكتور سعد الدين إبراهيم ـ وقد كنت أعمل وقتها معه في مركز ابن خلدون ـ، وقال: هل تستطيع أن تجهز نفسك للحديث عشرة دقائق عن ماهية الحركة

الإسلامية المعاصرة وتوصيفها؟

قلت له: «إنني أختلف معكم في وصفها بالحركة الإسلامية. إنها تناقض الإسلام ولا تعبر عنه، بل لا تعبر عن كل المسلمين، إنها تعبر عن الحركة الوهابية فقط».

قال: إذن أمامك الفرصة الآن لتقنعنا بوجهة نظرك. ونراك غداً على المنصة.

قلت: «لن أحضر لأتكلم فقط، بل سيكون معي بحث مكتوب أجهزه الليلة وألقيه شفهياً أمامكم غداً إن شاء الله تعالى».

وهذا ما حدث. قبلت التحدي ـ تحدي نفسي بنفسي ـ، وقبيل فجر اليوم التالي كان البحث مكتوباً بخط يدي.

وبعد الاستيقاظ في اليوم التالي ذهبت به إلى مقر «كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» حيث مكان عقد المؤتمر، وطلبت تصوير عدة نسخ من البحث وتم ذلك. وكانت ندوة رائعة في عدد الحاضرين ونوعية النقاش. بعدها أعطيت نسخة من البحث للدكتور محمد سيد سليم الأستاذ بالكلية والمشرف على المؤتمر، أثارت إعجابه وأرست صداقة ـ على البعد ـ بيننا أعتز بها.

وعلمت أنّ الكلية قد نشرت البحث أو ملخصاً له. ثم نشر «مركز ابن خلدون» هذا البحث في تقريره السنوي، ونشرته أيضاً المجلة الفصلية (الإنسان والتطور)، وذلك تحت عنوان «بين التدين النجدي والتدين المصري»، و التي يملكها ويديرها الدكتور يحيى الرخاوي أحد كبار الطب النفسي في الشرق الأوسط.

وشجعني هذا على أن أمضى في التحدي إلى آخره، فقررت تأليف كتاب كامل عن المعارضة السنية السعودية في القرن العشرين. يبحثها أصولياً وتاريخياً: يبدأ بالمعارضة التي قام بها الإخوان أولئك الذين أسهموا مع عبد العزيز في إقامة الدولة السعودية الثالثة ثم ثاروا عليه فأخمد ثورتهم، ثم حركة المعارضة السلمية لناصر السعيد في عهد الملك سعود، وحركة جهيمان العتيبي في عهد الملك خالد.

وأخيراً الحركة المعاصرة التي قامت بها اللجنة الشرعية، وانتقلت إلى لندن بزعامة المسعري والفقيه قبل انفصالهما. وهي الحركة التي أنجبت أسامة بن لادن.

أنهيت هذا الكتاب مع نهاية سنة (٢٠٠٠هـ)، ولا يزال مخطوطاً.

ومن هذا البحث الذي لا يزال مخطوطاً اخترت باقة من الفصول لتعطي ملمحاً عن جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية، وكيف زرع السعوديون شجرة الإخوان المسلمين في مصر.

وصدرت هذه الباقة من الفصول في بحث تم نشره ضمن كتاب يضم مجموعة من المقالات والأبحاث تحت عنوان «أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كما يراها مفكرون وكتّاب عرب» من إعداد وتقديم الدكتور أحمد مطر عن دار الكرمل في عمان، الأردن.

وقد حظي البحث باهتمام الكثيرين فكتب عنه الأستاذ سعد القرش في وكالة رويتر في أول مايو (٢٠٠٧م) ما يلي:

في حين تعلن السعودية أنّ تنظيم القاعدة لا يزال يمثّل خطراً على أراضيها يشدّد الكاتب المصري أحمد صبحي منصور على أنّ مصدر الخطر يكمن في جذور التيار الوهابي الذي يعتبره مرادفاً للتشدد الديني.

ويرى منصور أن «خطورة» التيار الوهابي لا تقتصر على السعودية وحدها بل تمتد إلى مصر التي تعرضت إلى «غزو وهابي». يقول: أنه وصل بشعبها إلى مرحلة الغيبوبة بعد أن أجهض في رأيه حركة الإصلاح الديني التي بدأت منذ مطلع القرن العشرين.

وأعلنت السعودية الجمعة الماضية أنها أحبطت مؤامرة لمهاجمة منشآت نفطية، وقواعد عسكرية، وشخصيات عامة في المملكة، واعتقلت (١٧٢ شخصاً)، ونقل عن الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي قوله: إنّ اعتقال ١٧٢ من المشتبه في أنهم متشددون لم يضع نهاية للخطر المرتبط بتنظيم القاعدة في البلاد.

وقتل متشددون إسلاميون في فبراير ـ شباط الماضي أربعة فرنسيين يعملون ويعيشون في المملكة.

وقال متشددون: إنهم يريدون طرد الغربيين «الكافرين» من السعودية مهد الإسلام.

ويقول مسؤولون: إن حوالي (١٤٤ أجنبياً وسعودياً) بينهم أفراد من قوات الأمن و(١٢٠ متشدداً) قتلوا في الهجمات والاشتباكات مع الشرطة منذ مايو ـ أيار (٢٠٠٣) عندما هاجم انتحاريون من القاعدة ثلاثة مجمعات سكنية يقيم بها غربيون في الرياض.

ويقول منصور وهو أزهري متخصص في التاريخ: إنّ الخطورة لا تكمن في الممارسات وحدها بل في دوافعها.

مضيفاً: إنّ الوهابية في أسسها النظرية وتطبيقاتها «أفظع فكر أنتجته الجزيرة العربية وطبقته على غير الوهابيين من المسلمين وغير المسلمين» بعد أن وجد له امتداداً خارج حدود الجزيرة العربية.

ويضيف: إنّ التيار الوهابي «المتزمت» وجد في حركة الإخوان المسلمين أرضاً خصبة لأفكاره التي وصلت بالشعب المصري إلى «هذه الحالة من الغيبوبة» التي تهدد في رأيه الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتمارس التمييز ضد غير المسلمين.

ويقول منصور في دراسة عنوانها «جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية»: إنّ صاحب الدعوة الوهابية محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩١م) الذي يعتبره سعوديون مصلحاً دينياً جعل من اتهام «المسلمين الآخرين بالكفر مبرراً دينياً للغزو والتوسع، وبذلك قامت الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥-١٨١٨م)» التي قضى عليها محمد علي ودمّر عاصمتها الدرعية بإيعاز من الدولة العثمانية.

وتشغل الدراسة (٤٩ صفحة) من كتاب (أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كما يراها مفكرون وكتاب عرب).

والكتاب الذي أصدرته دار الكرمل للنشر والتوزيع في العاصمة الأردنية عمان يقع في (٢٠٣ صفحات) متوسطة القطع، ويضم دراسات لعدد من الكتاب العرب، وأعدّه وقدم له أحمد أبو مطر وهو نرويجي من أصل فلسطيني.

ودرس منصور (٥٨ عاماً) في الأزهر منذ المرحلة الابتدائية، وبعد تخرجه عمل مدرساً لمادة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في جامعة الأزهر لكنه تعرض لمضايقات واتهامات أدت إلى فصله بتهمة ما اعتبره مخالفون إنكاراً للسنة النبوية.

وصدرت له كتب منها (حد الردة.. دراسة أصولية تاريخية)، و(الصلاة بين القرآن الكريم والمسلمين)، و(مصر في القرآن الكريم)، و(العقائد

الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف)، و(المسلم العاصي.. هل يخرج من النار ليدخل الجنة).

ويستعرض منصور الجذور التاريخية لما يراه الآن إرهاباً بانتقاد دوافع المد الإسلامي بعد وفاة النبي محمد ﷺ والذي نتج عنه «ما يعرف بالفتوحات الإسلامية التي تناقض الإسلام والتي اقتتل بسببها الصحابة.

ونتج عن الخلاف السياسي اختلاف في التدين وانقسام المسلمين.

ولتبرير الاعتداء ولتسويغه باسم الإسلام افتروا حديثاً نسبوه للنبي محمد ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله».

وجعلوا الاعتداء على الغير جهاداً.

ويصل إلى القرن الثامن عشر قائلاً: إنّ ابن عبد الوهاب في تحالفه مع محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى أعطاه مبرراً لغزو البلاد الأخرى «وقتل أهلها بعد اتهامهم بالكفر وإكراههم على قبول الوهابية على أنها الإسلام يجعل من الآخرين ومنهم الشيعة كفاراً».

وينقل عن عثمان بن بشر النجدي مؤرخ الدولة السعودية الأولى ومؤلف كتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) أنّ ابن سعود ارتكب مذبحة في كربلاء عام (١٨٠١).

وسجل النجدي بفخر تلك المذبحة قائلاً: «أخذنا كربلاء وذبحنا أهلها وأخذنا أهلها فالحمد لله رب العالمين ولا نعتذر عن ذلك ونقول: وللكافرين أمثالها».

ويقول منصور: إنّ الوهابية تمتد حالياً إلى تنظيمات علنية وسرية في

كثير من الدول، وإن الإخوان المسلمين «هم الطبعة المصرية من الوهابية النجدية الأعرابية» مشيراً إلى أن ابن عبد الوهاب «أفتى بكراهية الآخر (...) وحكم بكفر الشيعة كلها، واعتبر بلادهم بلاد حرب».

وأنّ فتاوى ابن عبد الوهاب تحولت إلى «واقع بالنار والدم» في نهاية القرن العشرين.

ويصف جماعة الإخوان المسلمين في مصر بأنها صناعة وهابية قائلاً: إنّ القيادة السعودية في عشرينيات القرن الماضي لخصت رؤيتها في «التمسك بالأيديولوجية الوهابية والتسلل بها إلى مصر لتكون مصر عمقاً استراتيجياً. وكانت النتيجة نجاح (مؤسس المملكة الحالية) عبد العزيز آل سعود في تحويل التدين المصري القائم على التسامح حتى في العصور الوسطى إلى تدين وهابي متشدد في عصر حقوق الإنسان».

ويرى مراقبون أنّ أشكال التدين الذي يعتبرونه شكلياً إضافة إلى انتشار الحجاب والنقاب في مصر منذ سبعينيات القرن العشرين له صلة مباشرة بالعمالة التي عادت إلى البلاد حاملة أنماط السلوك في السعودية التي لا تسمح للنساء بكشف وجوههن في الشوارع أو قيادة السيارات.

وشهدت مصر عمليات إرهابية نفذها متشددون إسلاميون، ففي عام (١٩٩٢م) اغتيل الكاتب فرج فودة (١٩٤٦-١٩٩٢م) أمام منزله بالقاهرة على يد شاب أوعز إليه أن فودة مرتد.

واتهم الشيخ محمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦م) وهو يصنف ضمن تيار ما يسمى بالاعتدال الإسلامي في شهادته أمام المحكمة الكاتب القتيل بأنه مرتد في إدانة صريحة للضحية.

كما حاول شاب غير متعلم اغتيال الروائي نجيب محفوظ عام (١٩٩٤م)

مدفوعاً بفتوى أنه مرتد.

ويقول منصور: إنّ الشيخ محمد عبده الذي توفي عام (١٩٠٥م) قاد حركة للإصلاح الديني في مصر «ولم يكن يدري أنّ حركته سيقوم بإجهاضها تلميذه (محمد) رشيد رضا لصالح السعوديين وأيديولوجيتهم السلفية. تحول التدين السني الصوفي المصري إلى تدين سني وهابي متطرف». واصفاً ما حدث بأنه غزو.

وينقل عن مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل أنه عرف حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩م) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين عام (١٩٢٨م) في موسم الحج عام (١٩٣٦م)، وأنه «كان وثيق الصلة بالسعودية».

مضيفاً: أنه كان يمسك بيد من حديد بميزانية الجماعة.

كما ينقل عن شقيقه جمال البنا أنه كان يخفي مصادر التمويل عن الأعضاء الكبار في مجلس الإرشاد.

ويشير إلى أنه عن طريق الدعم المالي السعودي تمكن البنا الذي كان يعمل مدرساً من إنشاء (٥٠ ألف شعبة) للإخوان في عموم مصر، وعن طريقها انتقلت الوهابية شرقاً وغرباً على حد قوله.

ويقول: إنه بفضل النفط انتشر الفكر الوهابي «المناقض للإسلام تحت اسم الإسلام في أكبر خديعة تعرض لها المسلمون طوال تاريخهم»، محملاً الوهابية مسؤولية ما يصفه بتقنين العنف ونشره في العالم.

ويتهم منصور جماعة الإخوان بالتآمر على السعودية التي استضافتهم خلال حكم الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر قائلاً: إنها اشترطت عليهم ألا يمارسوا العمل السري داخلها، لكنهم تخلوا عن وعدهم وأنشأوا حركة

معارضة من السعوديين الذين هرب بعضهم إلى الخارج «ومن رحم تلك المعارضة السعودية خرج أسامة بن لادن أكبر إرهابي في هذا العصر».

وقد شجعني هذا على إصدار هذا البحث الصغير معززاً بمقالات أخرى عن الإخوان المسلمين، ليكون كتاباً مكتملاً ضمن مشروع النشر الذي يتبناه المركز العالمي للقرآن الكريم، وموقع أهل القرآن.

والله جل وعلا هو المستعان.

د. أحمد صبحي منصور
فرجينيا ـ الولايات المتحدة
مايو ٢٠٠٧

استهلال

يقول تعالى للبشر جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

أي أنه خلقهم جميعاً من أب واحد وأم واحدة، أي هم إخوة ينتمون لنفس الأب والأم، وقد جعلهم أجناساً مختلفة وشعوباً مختلفة، لا ليتنازعوا ويتقاتلوا ولكن ليتعارفوا.

والتعارف لا يكون إلا بالعلاقات السلمية والتلاقي الحضاري، وقبول الآخر، والاستفادة من تجربته الإنسانية، وتراثه الحضاري، والانفتاح على ثقافته، والتسامح في الاختلاف معه إيماناً بأن التنوع مطلوب لازدهار الحضارة العالمية الإنسانية.

وأما من ناحية التدين فإن أكرم الناس عند الله تعالى هو الأكثر تقوى، وليس الأكثر ثروة أو جاهاً أو ذكاءً أو علماً أو حسباً ونسباً أو جمالاً أو صحةً أو شباباً.

وهذه التقوى سيكون مرجع الحكم عليها لله تعالى وحده يوم القيامة، ومن يزعم تزكية نفسه الآن فقد عصى الله تعالى الذي قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا

(١) الحجرات: ١٣.

أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1].

إذن ليس في الإسلام المقولة الوهابية التراثية التي تقسم العالم إلى معسكرين، وتحتم الجهاد ضد المعسكر الآخر باعتباره «دار حرب» في مقابل «دار الإسلام»، فماذا عن الآخر في الإسلام في ضوء ما ذكره القرآن الكريم عن الكفار والمشركين وقتالهم والجهاد ضدهم؟

الآخر في الإسلام هو كل معتد ظالم، و كل إرهابي يقتل الأبرياء والمسالمين.

هنا نؤكّد ما سبق قوله من أنّ معنى الإسلام في السلوك هو السلام في الأرض، وهو في العقيدة الاستسلام، والانقياد لله تعالى وحده. المسلم في العقيدة هو من يسلم لله تعالى وجهه وقلبه وجوارحه، وذلك هو معنى الإسلام العقيدي القلبي الذي يرجع الحكم فيه لله تعالى وحده يوم القيامة، وليس لمخلوق أن يحكم فيه وإلا كان مدعياً للألوهية متقمّصاً لدور الله تعالى رب العزة ومالك يوم الدين.

والمسلم في السلوك هو كل إنسان مسالم لا يعتدي على أحد، ولا يسفك دماء الناس ظلماً وعدواناً. وهذا هو المجال الذي نستطيع أن نحكم عليه، فكل إنسان مسالم مأمون الجانب هو مسلم بغض النظر عن عقيدته واتجاهه ومذهبه وفكره ودينه الرسمي.

تشريعات الجهاد في الإسلام هي لرد العدوان فقط، والاستعداد للقتال هو لإرهاب العدو المعتدي وتخويفه وردعه مقدماً حتى لا يقوم بالاعتداء، أي هي لحقن دماء العدو والدولة المسالمة أيضاً، حتى لا يغتر الخصم الراغب في الاعتداء على العدوان متشجعاً بضعف الدولة المسالمة.

---

(1) النجم: ٣٢.

ومن هنا فإنّ مصطلح الإرهاب في القرآن الكريم الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]، يختلف عن مفهوم الإرهاب في عصرنا الذي يعني الاعتداء وقتل المدنيين والمسالمين.

وقد تكررت بحوث لنا في هذا الموضوع تثبت أنّ الإسلام هو دين السلام، وأنّ العرب هم الذين انتهكوا تعاليمه السلمية قديماً وحديثاً. وهم بذلك ينطبق عليهم بسلوكهم مصطلح الكفر والشرك بالمفهوم القرآني الإسلامي.

الشرك والكفر بمعنى واحد في مصطلحات القرآن، وهما معاً لهما معنيان حسب العقيدة والسلوك، وكلا المعنيين يناقضان معنى الإسلام في العقيدة والسلوك.

الكفر ـ أو الشرك ـ في العقيدة يعني اتخاذ آلهة أو أولياء مع الله. والتدين العملي للبشر ـ خصوصاً المسلمين ـ ممتلئ بتقديس البشر والحجر، مع إعلانهم أنه لا اله إلا الله.

ولكن بغض النظر فإنّ كل فريق يعتقد أنه على الحق ويتهم الآخرين بأنهم على الباطل. لذا فمرجع الحكم بين الناس فيما هم فيه مختلفون إنما يكون لله تعالى يوم القيامة، فهو جل وعلا القاضي الأعظم، وقد اختلف الناس في ذاته وصفاته ونسبوا له كذا وكذا، لذا فهو الذي سيحكم في هذا الأمر، وليس لأحد أن يتدخل في هذا الدور الإلهي المؤجل إلى يوم الدين إلا في معرض النصح والإرشاد والعظة طلباً للهداية.

الشرك ـ والكفر ـ بمعناه السلوكي هو الاعتداء والظلم والبغي والطغيان

---

[1] الأنفال: ٦٠.

والإجرام، وهذه كلها مفردات الشرك والكفر والمشركين والكافرين في القرآن الكريم.

هذا الشرك السلوكي نستطيع أن نحكم عليه بسهولة طبقاً للأعمال الإجرامية التي يقوم بها المجرم. نحن هنا لا نحكم على قلبه أو على ما يدعيه من عقائد، وإنما نحكم على أفعاله الإجرامية، على سفكه للدماء وانتهاكه للحرمات، وإفساده في الأرض، نحكم على سرقته ونهبه وهتكه للأعراض، وتعذيبه للأبرياء.

ودائماً ما يكون الأبرياء ضحايا لهذا الكافر المشرك بالسلوك.

مشكلتنا ـ كمسلمين ـ أننا نحكم بالعكس تماماً.

من ينطق بشهادة الإسلام نجعله مسلماً مهماً ارتكب من جرائم.

وقد يكون هناك زعماء مصلحون مسالمون يعملون الصالحات النافعات ينتمون للمسيحيين أو الإسرائيليين أو البوذيين أو العلمانيين، أولئك هم مسلمون حسب معنى الإسلام السلوكي الذي يعني السلم، ولكننا نعتبرهم مشركين كافرين ونحكم على عقائدهم متناسين أنّ الأولى أن نصلح عقائدنا نحن وهي مليئة بتقديس الأضرحة والأئمة بأكثر مما يفعله غير المسلمين.

وطبقاً للسلوك وحده فكل دعاة السلام في الأمم المتحدة وخارجها هم أعظم المسلمين، وإن لم ينطقوا بشهادة الإسلام.

فغاندي، ومارتن لوثر كنج، ومانديلا، وكل دعاة حقوق الإنسان من الغربيين هم المسلمون الحقيقيون في مجال السلوك.

وطبقاً للسلوك وحده فإنّ مجرمي الحرب هم أشدّ الناس كفراً وظلماً وعدواناً، ليسوا فقط هتلر، وموسوليني، وستالين، بل يضاف إليهم

الخلفاء غير الراشدين الذين اعتدوا وغزوا واستعبدوا الشعوب الأخرى واحتلوا أراضيهم، ثم من سار على نهجهم مثل آل سعود، وطالبان، وصدام حسين، وابن لادن، والظواهري، وبقية سفاكي الدماء الذين حولوا العراق والجزائر إلى سلخانة.

ليس في الإسلام تقسيم العالم إلى معسكرين، وليس من الإسلام الاعتداء على الآخرين واحتلال أراضيهم، مثلما فعلت قريش في دولة الخلفاء الراشدين، ودول الخلفاء غير الراشدين.

قريش كانت المقصودة بوصف الكفر والشرك حين نزل القرآن، فقد مارست الكفر والشرك العقيدي بعبادة الأولياء والأوثان على أنها تقربهم إلى الله تعالى زلفى.

ومارست قريش الكفر السلوكي والشرك السلوكي بمعنى الاعتداء واضطهاد المسلمين المستضعفين وإكراههم في الدين، مما اضطرهم إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم هاجروا أخيراً إلى المدينة.

قريش لم تتركهم في حالهم فتابعتهم بالغزو والقتل والقتال في وقت صبر المسلمون كعادتهم لأنهم كانوا ممنوعين من رد العدوان.

ثم جاءهم الإذن بالقتال فتغيّر الموقف تدريجياً إلى أن صار لصالح المسلمين حربياً ودينياً، وأصبحت قريش منعزلة في وقت انتشر فيه الإسلام وأدركت فيه جماهير العرب سخافة عبادة الأوثان والقبور، رأت قريش في النهاية أنّ مصلحتها تحتم عليها الدخول في الإسلام، فدخلت فيه متأخراً بعد تاريخ طويل من عداء الإسلام.

أسلمت قريش قبيل وفاة النبي محمد ﷺ، وبعد موته استعادت سيطرتها على دولة النبي ﷺ، منتهزة فرصة حرب الردة، فحوّلت الانتصار على المرتدين إلى استمرار في الغزو فاعتدوا على الروم

ومستعمراتهم في الشام، وقضوا على الدولة الفارسية، وبدأ ما يعرف بالفتوحات الإسلامية التي تناقض الإسلام، والتي بسببها اقتتل الصحابة، ونتج عن الخلاف السياسي اختلاف في التدين، وانقسام المسلمين إلى أحزاب كل حزب بما لديهم فرحون، ونسوا تحذير رب العزة من الانقسام الديني، وكونه دليلاً على الوقوع في الشرك العقيدي والشرك السلوكي أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

ولتبرير الاعتداء ولتسويغه باسم الإسلام افتروا حديثاً نسبوه للنبي محمد ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..».

وجعلوا هذا الاعتداء على الغير جهاداً. وباعتداء المسلمين على دولة الروم بدأت الحرب بين الإمبراطوريتين، ولكل منهما دين مختلف في الظاهر، وإن كان نفس التدين في الواقع؛ التدين القائم على التسلط والظلم والاعتداء والإكراه في الدين، واستخدام الدين في ظلم الناس ونشر الفساد في الأرض.

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الأنعام: ١٥٩.

(٣) الروم: ٣١-٣٢.

كان هذا هو منطق التدين في العصور الوسطى، وبه تم سفك دماء الملايين من الفريقين، وكل منهم يحسب أنه يحسن صنعاً، وكل منهم يتهم المعسكر الآخر بالكفر، ويرى نفسه محتكراً للحق.

ثم صحت أوروبا وتخلصت من سيطرة الكنيسة والكهنوت والاكليروس، وبدأت طريق الإصلاح العلماني العقلي والاكتشاف العلمي.

ثم حاولت مصر أن تنهج نفس الطريق مع بداية القرن التاسع عشر، وحققت خطوات لولا أن عادت خرافات وأساطير وتشريعات العصور الوسطى تحملها الوهابية ودولتها السعودية التي تمثل أردأ فكر أنتجه المسلمون في القرون الوسطى.

وبفضل البترول تم نشر هذا الفكر السلفي المناقض للإسلام تحت اسم الإسلام في أكبر خديعة تعرض لها المسلمون طوال تاريخهم.

وفي إطار هذه الخديعة الكبرى جرى استدعاء كل مظاهر التعصب الديني واستئصال المخالف في المذهب وفي الدين وفقاً لحد الردة أو الجهاد ضد دار الحرب أي الغرب.

وهذه الورقة البحثية تؤصل عقيدة الإرهاب لدى الوهابية، منذ نشأتها في منطقة نجد وتوسعها باسم الإسلام.

والله تعالى المستعان..

أحمد صبحي منصور

الفَصْلُ الأَوَّلُ



البداية...

الفصل الأول

«نجد»: هي الخصم اللدود للحجاز، وأعراب «نجد» هم الخصم العتيد لقريش، وهي أشهر قبيلة عربية في التاريخ.

والصراع بين نجد والحجاز، أو بين أعراب نجد وقبائلها التي تنتمي إلى «ربيعة» مع قريش التي تنتمي إلى «مضر» هو الأساس التاريخي للجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام، بل يمكن قراءة تاريخ المسلمين من خلاله.

وقد فازت قريش والحجاز في معظم مراحل هذا الصراع، فقريش هي التي أنشأت الدول الأموية والعباسية، والفاطمية، وكل الخلفاء الراشدين وغير الراشدين ينتمون لقريش، وقريش والأشراف هم الذين حكموا الحجاز معظم العصور الوسطى، بينما كان الثوار على خلفاء قريش هم قبائل نجد، إمّا في شكل قطّاع طرق ينهبون قوافل الحجاج (كراهية في الحجاز والكعبة والأماكن المقدسة التي أرست مكانة قريش والحجاز).

وإما في شكل دول متحركة تقوم بالقتل وسفك الدماء تحت إطار ديني، كما حدث في حركة الزنج والقرامطة قديماً، ثم في الحركة الوهابية ودولتها السعودية في العصر الحديث.

والدولة السعودية هي التي حققت الانتصار الأخير على الحجاز، وعلى الأشراف المنتمين للنبي محمد ﷺ بالنسب، وهم أعلى طائفة باقية من قريش حتى الآن.

ونعطي الآن بعض التفاصيل، لنرى تجذّر العنف الذي ورثته الوهابية السعودية من وطنها نجد خلال تاريخها الطويل مع الإرهاب، وكيف قننت ومارست الوهابية هذا العنف، ونشرته في العالم.

منطقة «نجد» متطرفة في مناخها، شحيحة في مواردها، منعزلة في صحرائها، لا يرى أهلها إلا أنفسهم، ولا يرون في الأغراب إلا مجرد ضحايا للسلب والنهب حين يمرون على صحراء نجد من العراق إلى الحجاز.

وفي صحراء نجد القاحلة والواسعة عاش الأعراب على قطع الطريق، وكانت تأتيهم الفرصة الكبرى حين تنشأ فيهم أو تنتشر بينهم دعوة دينية تبرر وتبيح لهم القتل والسلب للآخرين على أنه جهاد.

ولذلك كان استحلال الأعراب النجديين لدماء المسلمين المسالمين وأموالهم وأعراضهم في التاريخ الإسلامي مرتبطاً بثورات نجد الدينية، تلك الثورات التي تخصصت في التدمير وسفك الدماء.

وما عدا الثورات ومشروعات الدول الدموية فإنّ تاريخ نجد العادي مجرد غارات داخلية فيما بينهم، أو غارات سنوية عادية على قوافل الحجاج، أي مجرد غارات «علمانية» بدون شعارات دينية.

ولكن تلك الغارات المعتادة استلزمت أن تسير قوافل الحجاج في حماية جيش كامل، لحماية الحجاج من غارات أعراب نجد.

ولقد تأثر ابن خلدون بتاريخهم الدموي، فقرر في مقدمته الشهيرة أن

الأعراب هم أسرع الناس للخراب، وأنهم يحتاجون إلى دعوة دينية يستطيعون مَن خلالها استحلال الدماء والأموال والأعراض وإسباغ الشرعية على ثوراتهم واعتداءاتهم[١].

وهنا نعطي محطات سريعة نقرأ فيها التاريخ الإسلامي بإيجاز «قراءة جغرافية»، أو «قراءة نجدية»:

١. في «نجد» بدأ التطرف مبكراً حين كانت المركز الأساسي لحركة الردة، ففي سهل حنيفة ظهر مسيلمة الكذاب، وتحالفت معه سجاح التميمية، ولنتذكر أنه في نفس سهل حنيفة ولد وعاش محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الوهابية فيما بعد.

ولقد وصف القرآن الكريم معظم الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً[٢]، وقد خضع الأعراب لقوة المسلمين وسالموها، مع أنّ الإسلام لم يدخل قلوبهم بعد[٣]، فلما توفي النبي محمد ﷺ وتولى أبو بكر تمردوا على الدولة في حركة حربية هادرة مركزها «نجد» وهاجموا المدينة، فليس صحيحاً أنّ أبا بكر حارب المرتدين، وإنما الصحيح أنّ المرتدين هم الذين حاربوا أبا بكر والمسلمين.

وبعد إخماد حركة الردة بصعوبة بالغة رأى أبو بكر أن يتخلص من بأس الأعراب النجديين بتصدير قوتهم الحربية إلى الخارج شمال نجد، فكانت حركة الفتوحات العربية إلى شمال نجد في العراق أولاً، ثم الشام وإيران. وتكونت جيوش الفتوحات من أغلبية من الأعراب (المرتدين سابقاً)، وقيادة من الأمويين القرشيين (المعاندين سابقاً)، ذلك أن الأمويين

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص١٢٥-١٢٧.

(٢) التوبة: ٩٧.

(٣) الحجرات: ١٤.

رأوا أن مصلحتهم السياسية والاجتماعية تحتم عليهم الدخول في الدين الجديد، وسارعوا بتقدم الصفوف الأولى في الفتوحات بما لديهم من خبرة حربية، ومعرفة بطرق التجارة وصلات وثيقة بالقبائل العربية في الشام وعلى الطرق التجارية.

وانتهت الفتوحات وقد أصبح الأمويون يحكمون الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا باسم الإسلام، وفي خلافة عثمان سيطروا عليه، ومن خلاله انتقموا من أعدائهم السابقين في الإسلام، مثل عمار وابن مسعود، وكان من السهل أن يمر ذلك كله عادياً لولا أنّ الأمويين في خلافة عثمان اصطدموا بأعراب نجد فكانت الفتنة الكبرى، تلك الفتنة التي لا زلنا نسير في نفقها المظلم حتى الآن.

٢. كانت قضية «السواد» هي بداية الفتنة الكبرى.

والسواد هي الأرض الزراعية الواقعة بين نجد والعراق، وكان أعراب نجد يتطلعون إلى امتلاك «السواد» لأنها الأقرب إلى موطنهم وحيث كانوا يغيرون عليه قبل الإسلام ويحلمون بامتلاكه، ولكن الأمويين لم يسمحوا لهم بذلك واعتبروا «السواد» «بستان قريش»، فاشتعلت الثورة، وقتل ثوار نجد عثمان بعد أن حاصروه، ونصبوا «علياً» ﷺ خليفة، واشتعلت الحروب الأهلية، وفيها كان أعراب نجد هم عماد جيش علي ﷺ، ثم ما لبثوا أن خرجوا عليه وقتلوه وأصبح اسمهم الخوارج.

وبهذا تحول الأعراب النجديون من مسلمين في عهد النبي ﷺ ـ كيداً في قريش ـ إلى مرتدين عن الإسلام بعد دخول قريش فيه، ثم مسلمين للمرة الثانية بعد أن هزمتهم قريش، ثم إلى فاتحين في عصر أبي بكر وعمر تحت إمرة قريش، ثم إلى ثوريين على عثمان حين انحاز إلى القرشيين الأمويين وفضّلهم في الأموال على بقية المسلمين، ثم إلى خارجين على

عليّ بن أبي طالب.

كل ذلك التقلب حدث فيما بين موت النبي ﷺ (١١هـ، سنة ٦٣٢م) إلى مقتل علي على أيديهم (٤٠هـ/٦٦١م) أي خلال أقل من ثلاثين عاماً.

واصطبغت حركتهم بالعنف المرتبط بتفسير ديني، يسري هذا على قبولهم المتحمس للإسلام في عهد النبي ﷺ، ثم خروجهم عليه في حركة الردة تحت زعامة مدعي النبوة، ثم انغماسهم في الفتوحات على أنها جهاد يغنمون منه النصر والشهادة والغنائم في الدنيا و الآخرة، ثم حين ثاروا على عثمان رفعوا لواء العدل، وحين رفع الأمويون المصاحف على أسنة الرماح في موقعة صفين خداعاً أرغموا علياً ﷺ على الموافقة على التحكيم لكتاب الله، ثم حين ظهر أنّ التحكيم خدعة خرجوا على علي ﷺ لأنه وافق على التحكيم واتهموه بالكفر ثم قتلوه.

بعدها تفرّق أعراب نجد تحت اسم الخوارج، وأخذوا يرفعون لواء الحاكمية «لا حكم إلا لله»، ويقتلون المسلمين المسالمين في العراق وإيران، فالخوارج استباحوا قتل المسلمين.

يقول الملطي (المتوفى: ٣٧٧هـ) عن الطائفة الأولى منهم: إنهم كانوا يخرجون بسيوفهم في الأسواق حين يجتمع الناس على غفلة فينادون «لا حكم إلا لله»، ويقتلون الناس بلا تمييز[١].

وهذا شبيه بما يفعله المتطرفون من تدمير المقاهي والشوارع لقتل الناس كيفما اتفق وحجتهم «الحاكمية» أي «لا حكم إلا لله» نفس مقولة الحاكمية الأولى من الخوارج.

وأرهقوا الدولة الأموية بثوراتهم مما ساعد في سقوط الأمويين سريعاً

[١] الملطي: التنبيه والرد: ص٤٧ تحقيق زاهد الكوثري.

أمام العباسيين، وخفت صوت الخوارج بعدهم. ولكن بعد أن أرسوا عملياً مبدأ الحاكمية.

صحيح أنّ ثقافتهم البسيطة لم تسمح لهم بتقعيده وتنظيره ولكنهم طبقوه عملياً ودموياً على المسلمين غير المحاربين في الأسواق والتجمعات السكنية بعد إصدار قرار نجدي باستحلال دماء كل المخالفين لهم في المذهب والعقيدة.

والاستحلال هو المبدأ النجدي الأصيل في التعامل مع الآخر، فهم يستحلون دمه وماله وعرضه حين يغيرون عليه في غاراتهم العادية ـ العلمانية ـ بدون الحاجة لفتوى أو مسوغ ديني، أما حين تقوم فيهم دعوة دينية فإنه يجرى تبرير نفس الاستحلال وأنواعه بفتاوى وأحاديث منها «جعل رزقي تحت ظل رمحي».

٣. وعاد عرب نجد للثورة مرة أخرى في العصر العباسي بعد أن ملوا من الإغارة الروتينية على الحجاج، ووجدوا الغطاء الديني في دعوة المغامر علي بن محمد فاتبعوه، مع أغلبية من الرقيق الزنوج فيما عرف بثورة الزنج التي خربت جنوب العراق طوال خمس عشرة سنة (٢٥٥-٢٧٠هـ) إلى أن تم إخمادها بصعوبة بالغة.

وفي حركة الزنج قتل الثائرون ثلاثين ألفاً حين استولوا على مدينة الأبلة في العراق سنة (٢٥٦هـ)، وفي العام التالي دخل البصرة زعيم الزنج بعد أن أعطى أهلها الأمان، ولكنه نكث بعهده فقتل أهلها وسبى نساءها وأطفالها وأحرق مسجدها الجامع، وكان من بين سباياه نساء من الأشراف، وقد فرّقهن على عسكره من الزنوج، وكانت السبايا العلويات تباع الشريفة منهن في معسكره بدرهمين وثلاثة، وحين استجارت به إحداهن ليعتقها أو ينقذها من ظلم سيدها الزنجي قال لها: «هو مولاك وأولى بك من

غيره»[1].

ثم ما لبث أعراب نجد أن اشتعلت ثورتهم هادرة تحت اسم القرامطة وهي دعوة يختلط فيها التشيع بغيره، وامتدت غاراتهم إلى العراق والشام والحدود المصرية، ولم تنج الكعبة من تدميرهم، وقد سبقوا المغول في سياسة الأرض المحروقة، أو إبادة كل الأحياء في المدن التي يستولون عليها.

وقد شهد المؤرخ الطبري جانباً من فظائعهم وسجلها في الجزء العاشر والأخير من تاريخه فيما بين (٢٨٦-٣٠٢هـ).

واستمرت فظائعهم بعد الطبري بقرنين تقريباً حتى تغلب عليهم أعراب المنتفك.

وكان القرامطة أكثر وحشية في استباحة الدماء والأعراض، ومن موقع المعاصرة والمشاهدة روى الطبري بعض أخبار زعيمهم، منها أنه خصص غلاماً عنده لقتل الأسرى المسلمين، وأنه استأصل أهل حماة ومعرة النعمان وقتل فيهما النساء والأطفال، ثم سار إلى بعلبك وقتل عامة أهلها، وسار إلى سلمية وأعطاهم الأمان ففتحوا له الأبواب فقتل من بها من بني هاشم، ثم اختتم بقتل أهل البلد أجمعين بما فيهم صبيان الكتاتيب، ثم خرج عن المدينة وليس فيها عين تطرف، ونشر الخراب والدمار في القرى المحيطة.

أما ما فعله في الكعبة وقتل الحجاج فيها وإلقاء الجثث في زمزم، واقتلاع الحجر الأسود، فذلك ما استفاضت فيه الأخبار.

وهذه الوحشية في قتل الأبرياء كانت تقوم على منهج فكري أشار إليه النويري في حديثه عن التربية الفكرية لشباب القرامطة، كما أشار إليها

---

(١) تاريخ الطبري: ج٩/ص٤٧٢-٤٨١، والمسعودي: مروج الذهب ج٤/ص١٤٦.

الطبري في قصة واقعية لشاب اقتنع بالدين القرمطي وهجر أمه وأسرته مقتنعاً بالدين الجديد معتقداً استحلال الدماء[1].

٤. وبعد القرامطة عاد أعراب نجد إلى ما اعتادوه من قطع الطريق على الحجاج والاقتتال فيما بينهم، إلى أن ظهر فيهم محمد بن عبد الوهاب بدعوته الدينية وتحالف مع ابن سعود.

وكان أهم بند في التحالف بينهما (الدم الدم، الهدم الهدم).

وأعطاه ابن عبد الوهاب تشريع الاستحلال بعد أن اتهم كل المسلمين الآخرين بالكفر، وجعل ذلك الاتهام مبرراً دينياً للغزو والتوسع.

وبذلك قامت الدولة السعودية الأولى، ونشرت السلب والنهب وسفك الدماء في الجزيرة العربية وحول الخليج وفي العراق والشام، إلى أن اضطرت الدولة العثمانية للاستعانة بواليها على مصر «محمد علي باشا» فقضى على الدولة السعودية، ودمر عاصمتها «الدرعية» سنة (١٨١٨م).

ولا تختلف مذابح الخوارج والزنج والقرامطة ـ وقادتهم من أعراب نجد أساساً ـ عن المذابح التي قام بها النجديون الوهابيون السعوديون في تأسيس الدولة السعودية الأولى، والدولة السعودية الثالثة الحالية.

وقد وصلت تلك المذابح إلى العراق والشام والبيت الحرام وسائر مدن الحجاز، وكان أكثر الضحايا من النساء والأطفال والشيوخ.

ولا تختلف هذه المدرسة الفكرية التي كان يعدها القرامطة لغسيل مخ الشباب عن الإعداد الفكري الذي كان فقهاء الوهابية يعدونه لشباب الأعراب النجديين في العقد الثاني من القرن العشرين والذي يتحول به

---

[1] أخبار القرامطة في تاريخ الطبري: ج١٠/ص٧١، ٧٧، ٨٦، ٩٤، ٩٩، ١٠٧، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٨. وفي نهاية الأرب للنويري: ج٢٥/ص١٩٥-٢٢٧ وما بعدها.

الشاب الأعرابي إلى مقاتل عنيد يرى الجهاد في استحلال قتل كل من ليس وهابياً.

وعن طريق هذا الإعداد الثقافي تكون «الإخوان» جنود عبد العزيز آل سعود الأشداء الذين أسسوا الدولة السعودية الحالية، وكانت سمعتهم في القتل والتدمير ترعب قرى الشام والعراق، كما لا يختلف عن الإعداد الثقافي الذي تقوم به جماعات الإخوان وبقية التنظيمات العلنية والسرية في تاريخنا المعاصر، والذي يجعل الشاب المصري المسالم يستسهل تفجير الشوارع والمباني معتقداً أنّ ذلك جهاد في سبيل الله.

كما لا يختلف ذلك عن الوحشية الهائلة التي يتعامل بها المتطرفون في الجزائر مع أبناء الشعب المسالم من نساء وأطفال، وما حركة طالبان عن ذلك ببعيدة، فهم الذين تشربوا الفكر السلفي.

الدولة الوهابية السعودية الأولى

(١٧٤٥ إلى ١٨١٨م)

ونعطي بعض التفاصيل التاريخية بسرعة:

قامت الدولة السعودية الأولى بناء على التحالف بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود صاحب الدرعية، وهي مدينة منسية في صحراء نجد.

وتم هذا التحالف عام (١١٥٨هـ/١٧٤٥م)، وبه أعطى ابن عبد الوهاب للأمير السعودي مسوغاً شرعياً لغزو البلاد الأخرى واحتلالها وقتل أهلها بعد اتهامهم بالكفر وإكراههم على قبول الوهابية - على أنها الإسلام، زاعماً أنّ هذا هو الجهاد الذي كان يفعله النبي محمد ﷺ.

بهذا التحالف قامت الدولة السعودية الأولى فيما بين (١٧٤٥م إلى ١٨١٨م)، وقتلت مئات الألوف من السكان المسالمين في الجزيرة العربية والعراق والشام.

وبدأ السعوديون باحتلال نجد كلها ثم ضم الأحساء، وتوسعوا في غاراتهم لتصل إلى قطر والبحرين والكويت وعمان، ثم ضموا الحجاز، وحاربوا اليمن، وتطلعوا لاحتلال العراق والشام، وأدى توسعهم هذا المرتبط بالمذابح والتدمير إلى اضطرار الدولة العثمانية للاستعانة بواليها

القوي في مصر «محمد على باشا» الذي أرسل حملتين إلى الحجاز لاستعادته من السعوديين الوهابيين سنة (١٨١١م)، واستمرت الحرب بينه وبينهم إلى أن تم تدمير الدرعية العاصمة السعودية سنة (١٨١٨م).

سالت دماء المسلمين المسالمين أنهاراً في تلك الغارات السعودية الوهابية التي ارتكبتها الدولة السعودية الأولى.

ونكتفي بما قاله مؤرخ الدولة السعودية الأولى «عثمان بن بشر النجدي» في كتابه (عنوان المجد في تاريخ نجد) عن مذبحة كربلاء في أحداث سنة (١٢١٦ هجرية):

«وفيها سار سعود (يقصد سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود) بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها.. وقصد أرض كربلاء، وذلك في ذي القعدة، فحشد عليها المسلمين وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الإمام الحسين ﷺ، وأخذوا ما في القبة وما حولها، وأخذوا النصبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة، وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر..».

وأدت وحشية السعوديين الوهابيين في مذبحة كربلاء إلى فزع أهل العراق وموت حاكم العراق سليمان باشا كمداً في نفس السنة (١٢١٦هـ/ ١٨٠١م)، وتهديد شاه إيران بغزو العراق لحماية الأماكن الشيعية المقدسة فيه.

ولم يمنع ذلك من استمرار الغارات السعودية الوهابية في العراق فتحول على أيديهم إلى فوضى ودمار.

والمؤرخ عثمان بن بشر النجدي ردّ على انتقاد المسلمين لما فعله

الوهابيون بأهل كربلاء، فقال مفتخراً: «وقولك أننا أخذنا كربلاء وذبحنا أهلها وأخذنا أهلها فالحمد لله ربّ العالمين، ولا نعتذر عن ذلك، ونقول: وللكافرين أمثالها».

ويقول في موضع آخر: «وأقمنا بها عشرة أيام وذبحنا ودمرنا ما بلغك علمه».

والتعليل هنا واضح؛ إنه اعتبر الوهابيين هم وحدهم المسلمين، وكان دائماً يصفهم وحدهم بهذا الوصف بينما يجعل الآخرين ومنهم الشيعة كفاراً، ويستحل قتلهم جميعاً، وسلب أموالهم طبقاً لما قرره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (رسائله).

ويصف نفس المؤرخ موقعة أخرى كان الضحايا فيها من أعراب بني خالد حيث فاجأهم نفس الأمير سعود بالهجوم، وهم يسقون دوابهم على عين ماء في منطقة الجهرة، وذلك عام (١٢٠٧ هجرية).

يقول ابن بشر في نفس الكتاب: «فنهض عليهم المسلمون فرساناً وركباناً فلم يثبتوا لهم ساعة واحدة، فانهزم بنو خالد.. فتبعهم المسلمون في ساقتهم يقتلون ويغنمون، واستأصلوا تلك الجموع قتلاً ونهباً..».

الدولة السعودية الثانية

(١٨٢١-١٨٨٩م)

استراح العالم الإسلامي بالقضاء العسكري على الدولة السعودية. ولكن مواجهة الدولة الأيديولوجية لا يتم بمجرد القضاء عليها عسكرياً، إذ لا بد من مواجهتها فكرياً من داخل الدين نفسه، وهذا ما لم يفعله محمد علي باشا والدولة العثمانية، بل هذا ما لم يفعله عبد الناصر في معركته مع الإخوان المسلمين، وهم الطبعة المصرية من الوهابية النجدية الأعرابية.

ترتب على هذا النقص في المواجهة الفكرية للوهابية أن ازداد انتشار الوهابية، واكتسبت في غياب الدولة السعودية قوة أكثر خصوصاً وأنّ الوهابيين كانت حجتهم قوية ضد الصوفية والشيعة في تقديسهم الأضرحة وتأليههم الموتى.

لقد عاشت الدولة السعودية الأولى حوالي قرن من الزمان (١٧٤٥-١٨١٨م)، ولذلك فإنه لم يكن منتظراً أن تنتهي الدعوة الوهابية بعد سقوط دولتها السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية، وقتل حاكمها في الأستانة. فقد استطاع زخم هذه الدعوة أن يعطي لأهل نجد تميزاً على غيرهم، إذ اعتبروا غيرهم من المسلمين كفاراً يعبدون الأضرحة والأوثان، لذا كان سهلاً أن تستطيع الدعوة الوهابية أن تقيم الدولة السعودية الثانية سريعاً، ولكن تصارع الأمراء السعوديين جعل هذه الدولة الثانية محدودة

الأثر وأسقطها في النهاية.

تأسيس الدولة السعودية الثالثة الراهنة (١٩٠٢-١٩٢٥م) بجهود الإخوان النجديين:

وباختصار شديد:

تمكن الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود (المشهور تاريخياً بابن سعود) من إقامة الدولة السعودية الثالثة، والتي لا تزال تعيش حتى عصرنا الراهن تنشر مذهبها الوهابي في كل أنحاء العالم على أنه الإسلام، وتنشر معه الإرهاب باسم الإسلام.

وواجه عبد العزيز صعوبات ضخمة في استرجاع ملك آبائه بعد استيلائه على الرياض سنة (١٩٠٢م)، فعمل على توطين شباب البدو في مستعمرات أو «هجر» كان أهمها الأرطاوية، والغطغط.

وفيها يقوم المعلمون الوهابيون بتلقينهم الوهابية على أنها الإسلام، وكان سهلاً عليهم إقناع البدو النجديين بالوهابية، ليس فقط لأن جذورها تركزت في الصحراء النجدية وغيرها، ولكن لأنّ الوهابية تعطي لأولئك البدو المحاربين فرصة الاستمرار في حياتهم العادية القائمة على السلب والنهب والقتل وقطع الطريق ولكن بتشريع إسلامي، يجعل القتل جهاداً وسلب أموال الغير غنائم، ثم يعدهم بالجنة إذا قتلوا في الجهاد.

بالإخوان استطاع عبد العزيز ضم الأحساء، وفتح حائل وشمر وتمكن من هزيمة آل الرشيد، والاستيلاء على عسير، والاستيلاء على الحجاز، مع استمرار الهجوم على الكويت، والعراق، وشرق الأردن.

ولكن بدأت معارضة الإخوان النجديين مبكراً لعبد العزيز، فالخلاف احتدم بينهما حول فتح حائل سنة (١٩١٥م)، ثم حول البطالة والعمل فعقد

مؤتمر العلماء سنة (١٩١٩م)، ومؤتمر الأرطاوية (١٩٢٤م) لتصفية الخلافات، إلا أنها شبت ثانياً أثناء فتح الحجاز بسبب المذابح التي ارتكبها الإخوان في الطائف.

وبعد ضم الحجاز قام عبد العزيز بإرجاع الإخوان إلى نجد بسبب رعب الحجازيين منهم.

ودخل عبد العزيز في محاولات أخيرة لرأب الصدع بينه وبينهم، فعقدت عدة مؤتمرات: مؤتمر الأرطاوية في ديسمبر (١٩٢٦م)، ومؤتمر الرياض في يناير (١٩٢٧م)، ثم الجمعية العمومية أو المؤتمر العام في الرياض (١٩٢٨/١١/٥م).

وبعد فشل المؤتمرات تحتمت المواجهة العسكرية بين عبد العزيز و«إخوانه النجديين» في معركة السبلة، وكانت بداية النهاية للإخوان النجديين فيما بين (١٩٢٨م) إلى (١٩٢٩م).

وانتهى دور الإخوان النجديين في تدعيم دولة ابن سعود، دون أن يعرفوا أن زعيمهم الداهية قد خطط إلى إحالتهم للاستيداع مبكراً بعد أن فتح الحجاز بسيوفهم سنة (١٩٢٥م)، إذ فكر في تكوين إخوان جدد في مصر هم الإخوان المسلمون، لينشروا الفكر الوهابي وليكونوا أكثر دهاءً من الإخوان البدو النجديين المشهورين بالجلافة والغلظة والصراحة.

جذور فكر الإرهاب لدى الإخوان النجديين

نتوقف هنا بالتفصيل مع تجذير فكر الإرهاب لدى الإخـوان النجـديين وفق ما تعلموه على يد شيوخ الوهابيـة، ويمكـن إيجـاز هـذه الأسـس في العناصر الآتية: كراهية الآخر، تكفيره، استحلال دمه وماله.

كراهية الآخر:

يتحـدث القـرآن عـن كراهيـة المـشركين المعتـدين الـذين أخرجـوا المسلمين من ديارهم وأموالهم وآذوهم وقاتلوهم بسبب أنهم اختاروا ديناً غير دين الأجداد[1].

أي أنّ مقياس الكراهية هو الاعتـداء والظلـم، أي أنّ المـشرك الـذي لا يعتدي ولا يظلم فلا مجال لكراهيته أو الاعتداء عليه، وبالتالي فـإنّ القتـال هو لرد الاعتداء بمثله، وليس للاعتداء على المسالمين[2].

وعلى هذا الأساس سارت سيرة النبي ﷺ الحقيقية في القـرآن الكـريم إذا قرأناه بمصطلحاته قراءةً موضوعية.

وأمّا السيرة التي دونها العصر العباسي فهـي تعكـس تـصورهم للـنبي

(١) البقرة: ٢١٧، التوبة: ٢٣، ٢٤، الأنفال: ٣٠، ٣٨، ٤٠، المجادلة: ٢٠، الممتحنة: ٨.

(٢) البقرة: ١٩٠، ١٩٤.

محمد ﷺ من واقع فكر الدولة الدينية. ووصل هذا التصور بالتطور والتواتر إلى ابن عبد الوهاب عبر الفقه السني المتعصب الذي أرساه ابن حنبل في القرن الثالث الهجري، ثم ابن تيمية في القرن الثامن الهجري.

وورث ابن عبد الوهاب هذا الفقه المتشدد، وصبغه بالطبيعة النجدية فأصبحت الوهابية في أسسها النظرية وتطبيقاتها العملية أفظع فكر أنتجته الجزيرة العربية وطبقته على غير الوهابيين من المسلمين وغير المسلمين.

وأفتى ابن عبد الوهاب بكراهية الآخر ليس فقط من المسيحيين واليهود، وقد جعلهم «كفاراً» مستحقين للقتل والقتال، ولكن أيضاً غير الوهابيين من المسلمين، أي ممن أسماهم المشركين، داخل الجزيرة العربية وخارجها، من الصوفية والشيعة، وعلى هذا الأساس كان فهمه لآيات القرآن التي تتحدث عن المشركين، فلم ير في المشركين إلا مخالفيه في المذهب والعقيدة.

يقول ابن عبد الوهاب: «إنّ الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض»[1].

ويربط بين الكراهية والتكفير للآخرين فيقول: «فالله الله يا إخواني تمسكوا بأصل دينكم وأوله وآخره وأسّه ورأسه شهادة أن لا إله إلا الله واعرفوا معناها، وأحبوها وأحبوا أهلها وأحبوا إخوانكم، ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم أو قال: ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى، فقد كلفه الله تعالى بهم، وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم، ولو كانوا إخوانهم وأولادهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: كتاب كشف الشبهات، و١٣ رسالة أخرى، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ. نشر قصي محب الدين الخطيب. رسالة ستة مواضع منقولة من السيرة ٢٨.

به شيئاً، اللهم توفنا مسلمين»[١].

ويؤكّد نفس المعنى في الربط بين الكراهية والتكفير للآخر، فيقول: «فإذا قيل لك أيش دينك؟ فقل: ديني الإسلام وأصله وقواعده أمران: الأول الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه، وتكفير من تركه، والثاني الإنذار عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله»[٢].

ويقول: «إنّ من وحّد الله وعبد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم»[٣].

وقال عن معنى «اكفروا بالطاغوت»: «أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتبغضها وتكفر أهلها وتعاديها».

وقال عن معنى الإيمان: «أن تعتقد أنّ الله هو الإله المعبود وحده دون سواه وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم»[٤].

والموالاة في تشريع القرآن تأتي بمعنى التحالف الحربي عندما يعتدي المشركون على المسلمين المسالمين، وليس بالاعتداء على المسالمين المختلفين في العقيدة، ولكن أخذ ابن عبد الوهاب بالتراكم الفقهي فدعا إلى كراهية الآخر المختلف معه في العقيدة والمذهب حتى ولو كان مسالماً.

وقد نفذ الإخوان هذه التعليمات بدقة، إذ كانوا لا يسلمون على غير الوهابيين ولا يردون عليهم السلام...

---

(١) رسالة تفسير كلمة التوحيد: ص٣٥.

(٢) رسالة تلقين أصول العقيدة للعامة: ص٤١.

(٣) رسالة ثلاث مسائل: ص٤٢.

(٤) رسالة معنى الطاغوت: ص٤٣.

التكفير للآخر:

حكم عبد الوهاب بكفر الشيعة كلها، واعتبر بلادهم بلاد حرب، وقال: «وإن كلهم يشهدون أن لا اله إلا الله وأنّ محمد رسول الله، ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأنّ بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلاد المسلمين»[1].

وحكم بتكفير الجميع بمجرد كلمة، مثل ابن تيمية، يقول: «إنّ الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه لله كما يظن المشركون».

واستدل على ما قاله السابقون في بيان حكم المرتد والمسلم الذي يكفر بعد إسلامه، ثم ذكر أنواعاً كثيرة يترتب عليها الكفر واستحلال الدم والمال، منها أشياء يسيرة عند من يفعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزاح[2].

واتجه ابن عبد الوهاب إلى أهل عصره ليحكم بكفرهم، ويؤكد على أنهم أشدّ كفراً من الكفار السابقين..

يقول: «إنّ شرك الجاهليين السابقين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين: أحدهما: أنّ الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون له الدعاء.. الأمر الثاني: أنّ الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما

---

(١) رسالة كشف الشبهات: ص١٢.

(٢) كشف الشبهات: ج٥/ص١٢.

ملائكة، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً أفسق الناس»[١].

واحتج على علماء عصره الذين يسمون البدو مسلمين ويقولون بحرمة دمائهم وأموالهم مع أنّ أولئك العلماء حسبما يقول عبد الوهاب يقرون بأنّ البدو تركوا الإسلام وأنكروا البعث ويستهزئون ممن يؤمن بالبعث.

ويقول عبد الوهاب على علماء عصره: «ومع كل هذا يصرح هؤلاء الشياطين المردة الجهلة أنّ البدو أسلموا ولو جرى منهم كل ذلك، لأنهم يقولون لا اله إلا الله».

ثم يقارن بينهم وبين المرتدين في خلافة أبي بكر، ويجعل بدو عصره أكثر كفراً من المرتدين السابقين.

ثم يقول عن العلماء: «ثم يفتي هؤلاء المردة الجهال أنّ هؤلاء البدو مسلمون ولو صرحوا بذلك كله طالما قالوا لا اله إلا الله، سبحانك هذا بهتان عظيم»[٢].

استحلال دم الآخر وماله ونسائه:

ويرتبط التكفير باستحلال الدم والمال في فكر الشيخ ابن عبد الوهاب، ويربط في أسلوبه بين كلمتي «الكفار»، ووصف (الذين قاتلهم رسول الله محمد ﷺ) ليجعل الكفر مرتبطاً باستحلال الدم، وليفسر غزوات النبي الأعظم ﷺ بأنها كانت للإكراه في الدين وإجبار المشركين على الدخول في الإسلام خلافاً لحقائق الإسلام التي سبق بيانها..

---

[١] كشف الشبهات: ص١٠، رسالة تفسير كلمة التوحيد: ص٣٥، رسالة أربع قواعد للدين: ٣٩.

[٢] رسالة أربعة قواعد من الدين تميز بين المؤمنين والمشركين: ٣٧-٣٨.

ونعطي بعض أمثلة لما تناثر بين سطور الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الربط بين الكفار واستحلال دمائهم:

القاعدة الأولى من أربعة قواعد تميز بين المؤمنين والمشركين يقول عنها ابن عبد الوهاب: «أن تعلم أنّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين بأنّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت.. وما أدخلهم ذلك إلى الإسلام».

والقاعدة الثالثة: «إنّ النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم... وقاتلهم النبي ﷺ وما فرق بينهم...»[١].

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[٢]، وفهم معنى الفتنة بالمفهوم التراثي السياسي الذي يعني الحروب والثورات، مع أنّ معنى فتنة في القرآن هي الاضطهاد في الدين فيما يخصّ علاقة الناس ببعضهم البعض، كقوله تعالى عن المشركين الذين كانوا يضطهدون المؤمنين ويقاتلونهم ليجبروهم على الرجوع إلى عبادة الأسلاف ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٣].

وقوله تعالى عن تعذيب وحرق أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[٤].

وكقول بعض المنافقين للنبي ﷺ يطلب منه أن يأذن له بالتخلف عن

---

[١] رسالة أربعة قواعد من الدين تميز بين المؤمنين والمشركين: ٣٧-٣٨.

[٢] البقرة: ١٩٣.

[٣] البقرة: ٢١٧.

[٤] البروج: ١٠.

المسير للجهاد الدفاعي ولا يجبره عليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[1]، أي ائذن لي ولا ترغمني على الخروج.

والفتنة في تعامل الله تعالى مع الناس هي الاختبار والامتحان، ولذلك سقط المنافقون في امتحان الإيمان، فقال تعالى عنهم: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[2].

وقال عن الابتلاء بالخير والشر: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3]..

ونعود إلى ابن عبد الوهاب وهو يفهم الآية فهماً تراثياً عكس مفهومها القرآني، فالآية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[4]، تجعل المقصد الأصلي من القتال هو منع الاضطهاد في الدين حتى يكون الناس أحراراً في اعتناق ما يشاءون بلا ضغط أو إرغام.

وبهذا يتحقق الابتلاء والاختبار الذي خلقنا الله تعالى من أجله ويكون الدين علاقة خاصة بين العبد وربه، وهو وحده الذي يحاسب الناس على اختيارهم الحر يوم القيامة أو يوم الدين.

وهذا معنى ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[5].

أما الفهم التراثي السائد فهو الأمر بالقتال للمشركين المخالفين في

---

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) التوبة: ٤٩.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

(٤) البقرة: ١٩٣.

(٥) البقرة: ١٩٣.

المذهب أو الدين حتى ولو كانوا مسالمين لمنع العصيان والثورة، وفي الحقيقة يكون الدين حينئذ لأصحاب السلطان الذين يستخدمون الدين أو المذهب لتأكيد سلطانهم وليس لله تعالى الذي خلق الناس أحراراً في اعتقادهم ليكونوا مسؤولين أمامه يوم القيامة على اختيارهم.

ونتابع الشيخ ابن عبد الوهاب وهو يعلق على إحدى القضايا، فيقول: «فمن هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أنّ المشركين الذين قاتلهم الرسول ﷺ يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرخاء».

ويقول: «إذا تحققت أنّ الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصحّ عقولاً وأخفّ شركاً من هؤلاء»[1].

ويقول في تفسير كلمة التوحيد: «أن تعرف أنّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ وقتلهم وأباح أموالهم واستحل نساءهم كانوا مقرين لله سبحانه وتعالى بتوحيد الربوبية وهو أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا الله»...

ومع هذا فلم يدخلهم ذلك في الإسلام ولم يحرم دماءهم ولا أموالهم ولكن الذي كفرهم وأحلّ دماءهم هو أنهم لم يشهدوا بتوحيد الألوهية..

إلى أن يقول: «وتمام هذا أن نعرف أنّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله محمد ﷺ كانوا يدعون الصالحين فكفروا بهذا.. وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه رسول الله ﷺ »[2].

واستدل أيضاً بحرب الردة التي حدثت في خلاف أبي بكر، وقد دارت أهم معاركها في نجد. وكان يقارن بين أولئك المرتدين وبين البدو في عصره

---

(1) رسالة كشف الشبهات: ١٠،١١. وانظر أيضاً: ٣،٤،٦،١٠.

(2) رسالة تفسير كلمة التوحيد: ٣٤.

وموطنه. ويجعل أهل عصره أشد كفراً من المرتدين ومشركي العرب الجاهليين[١]. وبالتالي يستحقون القتل والقتال.

ويقول: إنّ الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء فهو كافر، وكذلك كمن آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه، ومن أقرّ بذلك كله وجحد البعض فقد كفر بالإجماع، وحلّ دمه وماله، ومن صدق الرسول ﷺ في كل شيء وأنكر وجوب الصلاة فهو كافر حلال الدم بالإجماع. ومن رفع رجلاً إلى مرتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة[٢].

وبالتطبيق العملي لهذه الفتاوى فإنّ الحكم عام باستحلال قتل الجميع وسلب أموالهم وانتهاك أعراضهم (الجميع ما عدا أتباع محمد بن عبد الوهاب) طالما لم يختلفوا فيما بينهم، فإذا اختلفوا وعارض بعضهم بعضاً فإنّ تلك الفتاوى ستجد مجال عملها فيما بينهم.

على أنّ هذه الفتاوى آتت أكلها في عصر الدولة السعودية الأولى، وبها تحول الغزو إلى جهاد إسلامي بناء على تكفير أصحاب البلاد المجاورة واستحلال دمائهم وأموالهم وأوطانهم، ثم أعاد عبد العزيز زخم الفكر الوهابي حين أنشأ على أساسه الإخوان في القرى أو الهجر، حيث كانوا ينقطعون للعبادة والتدريب الحربي، وحفظ مؤلفات ابن عبد الوهاب والاستماع إلى دروس المطوعة، وهم فقهاء نصف أميين تلقوا العلم على أيدي علماء لا يسمع عنهم أحد خارج الجزيرة العربية، ولكن أولئك العلماء هم الذين كونوا الأيديولوجية الفكرية للإخوان، وجعلوا فتاوى محمد بن عبد الوهاب تتحول إلى واقع بالنار والدم في العقدين الثاني

---

(١) رسالة ستة مواضع منقولة من السيرة النبوية: ٣٢، ٣١.

(٢) رسالة كشف الشبهات: ١١: ١٢.

والثالث للقرن العشرين.

مظاهر لانعكاس فكر ابن عبد الوهاب على الخلافات بين الإخوان وابن سعود:

التحالف بين العلماء والإخوان:

ونسترجع بعض القضايا الأساسية التي تحولت إلى مشاكل بينه وبين الإخوان، وفيها نرى فكر ابن عبد الوهاب حاضراً ينطق به الإخوان في مؤتمر العلماء الذي ناقش بأمر عبد العزيز خمسة قضايا أو مشكلات، كلها تعبر عن العقلية السائدة، ونسترجع تلك المشكلات الخمس:

هل يطلق الكفر على البدو والمسلمين الثابتين على دينهم القائمين بأوامر الله ونواهيه؟

والواضح هنا أنّ الإخوان يحكمون بكفر الوهابيين الآخرين الذين يؤيدون عبد العزيز ودولته ولكن لم يقوموا بالهجرة إلى الهجر أو المستوطنات الجديدة، ومعنى هذا أنّ محنة التكفير امتدت لتشمل حتى الإخوة في المذهب وفي الخندق الدفاعي ذاته، بسبب أنهم لم يهاجروا مثل الإخوان إلى القرى الجديدة.

ومن الطبيعي أنّ الإخوان احتاروا في فهم أدلة محمد بن عبد الوهاب الذي يستخدم آيات القرآن وفق نظريته في التكفير والاستحلال. وآيات القرآن تتحدث عن مؤمنين يعانون الاضطهاد في بلد ظالم يقولون تحت وطأة العذاب ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[1].

وهنا تكون الهجرة واجبة على المستطيع، والله تعالى يعفو عن

---

(1) النساء: ٧٥.

العاجزين عن الهجرة[1]، أما أن يهاجر بعض الناس دون أن يظلمهم أحد ولكن لكي يتدربوا على القتال والغزو وكراهية الآخرين والاستعداد لحربهم بعد تكفيرهم، فلا شأن لهم بالهجرة النبوية، وهجرة المسلمين الذين كانوا مضطهدين في مكة.

لقد دعا ابن عبد الوهاب للهجرة وفهم منها المطوعة أو فقهاء الهجر أنّ من لم يهاجر فهو كافر حتى لو كان من الوهابيين فأصبحت مشكلة.

وأضيفت لها مشكلة أخرى وهي خاصة بارتداء الزي المعتاد للإخوان، وهو زيّ الإمام محمد بن عبد الوهاب وهو العمامة دون العقال المعتاد، ولأنهم اعتبروا أنفسهم وحدهم المسلمين فقد أصبح سهلاً اتهام غيرهم ممن لا يرتدي العمامة الوهابية بأنه كافر حتى لو كان يعتقد مثل اعتقاد الإخوان.

وبالتالي فإذا كان الوهابيون الآخرون خارج نطاق الإخوان متهمين بالكفر مرشحين للاعتداء عليهم وعدم أكل ذبائحهم.. فكيف بالآخرين؟ ولخطورة هذا التساؤل في التأسيس لحرب أهلية بين الإخوان وبقية الوهابيين فإن مؤتمر العلماء واجه القضية بكل حسم، خصوصاً وأنّ أولئك العلماء كان معظمهم من الحضر وممن لا يقيمون في الهجر، ولذلك أفتى العلماء بما يقرب التكفير لمن يكفر الإخوة الوهابيين، وجعلت للمعاداة والموالاة مرجعية موحدة هي الولاية السياسية والولاية الشرعية. أي أنّ عبد العزيز وعلماءه فقط هم الذين يحدّدون الكفار المرشحين للاعتداء عليهم في الدنيا والمرشحين أيضاً عندهم للدخول في النار في الآخرة.. طالما أنّ بأيديهم مقياس الشريعة الإلهية..

وهنا وقف العلماء في صف ابن سعود، وكانت حججهم سياسية أكثر

(1) النساء: ٩٨.

منها فقهية مع أنّ ظاهر المشاكل كان فقهياً أكثر منه سياسياً.

وبالتالي أسفر مؤتمر العلماء عن منع الاحتكاك بين الإخوان وبقية الوهابيين، ولم يعد للإخوان استطالة على الآخرين من الوهابيين.

وبعد عودتهم محبطين إلى نجد بعد نجاحهم في ضم الحجاز إلى أملاك عبد العزيز هدد زعيمهم فيصل الدويش باستعمال السيف ضد عبد العزيز إذا سار في نفس طريق الشريف حسين، وفي العام التالي (١٩٢٧م) وجهوا ثمانية انتقادات أخرى موجهه له شخصياً.

وأيضاً نجد فيها ملامح الفقه الوهابي الذي تعلموه في الهجر، ونستعرض تلك الانتقادات:

نقموا عليه إرسال ولده سعود إلى مصر وهي بلاد الشرك، وإرسال ولده فيصل إلى لندن وهي بلاد الكفر. أي لابد من مقاطعة المشركين والكفار وإظهار العداوة والبغضاء لهم طبقاً لما نادى به عبد الوهاب، وبالتالي فلا يصح أن يأتي المحمل المصري من بلد الشرك - بلد المقوقس - إلى الحرم وهو مسلح ومصحوب بآلات اللهو والمجون (الانتقاد الثاني).

وأيضاً لا يصح استيراد المخترعات الحديثة الآتية من بلاد الشرك مثل السيارات والتلغرافات والتليفونات لأنها من السحر المحرم (الانتقاد الثالث).

أما (الانتقاد الرابع) فهو طلب لتفسير منع التجارة مع الكويت «فإن كانوا مسلمين تعاملنا معهم وإن كانوا مشركين حاربناهم»، أي إما وإما..

وليس هناك حل وسط إن كانوا مسلمين تعاملنا معهم، وإن كانوا مشركين حاربناهم. إما أبيض وإما أسود، إما مسلم على نفس عقيدتنا ومذهبنا وملبسنا فيكون مثلنا، وإمّا أن يكون غير ذلك فنقاتله. وهي

المعادلة الطبيعية لفكر التكفير والاستحلال.

وجاء (الانتقاد الخامس) يستنكر القوانين الوضعية الخاصة بالمكوس والضرائب التي لم يعرفها العصر العباسي وما بعده.

إذن فهي ليست من الشريعة.

وكان (الانتقاد السادس) يستنكر السكوت على الشيعة (الكفرة)، وعدم إدخالهم (بالقوة والإكراه) في دين الجماعة، أي أنّ المذهب والتدين الوهابي هو دين الجماعة.

ويستنكر (الانتقاد السابع) السماح للبدو في العراق وشرق الأردن بالرعي في مراعي المسلمين (أي الوهابيين) مع أنّ هذه المراعي كلأ مباح على جانبي الحدود ترعاه مواشي المسلمين الوهابيين وغير الوهابيين منذ قرون.

وجاء التساؤل الأخير عن هدم القبور...

والاتهامات هنا تخص عبد العزيز وحده وسياسته ولا شأن للعلماء بها مثل الاتهامات السابقة التي كانت تطول الوهابيين خارج نطاق الإخوان.

ولذلك وجد العلماء فرصتهم لاستنطاق الشيخ ابن عبد الوهاب بعد وفاته، خصوصاً وقد كان من بين هؤلاء العلماء الخمسة عشر مجموعة لا بأس بها من آل الشيخ، وبالتالي لابد لفكر الشيخ أن يكون حاضراً بحذافيره، وهم ورثة ذلك العلم والقائمون على حفظه.

ونستعرض فتاواهم وردودهم:

فقد توقفوا عن الإفتاء في موضوع التلغراف. ولم يقولوا بأنه مباح أو أنه محرم لأنه ما قرأوا عنه حكماً في فقه ابن حنبل وابن تيمية وابن عبد الوهاب، ولأنهم أيضاً لم يقفوا على حقيقته.. وذلك إقرار صريح بالعجز

عن الاجتهاد في أبسط المسائل:

وأفتوا لابن سعود بهدم القبور المقدسة موافقين لرأي الإخوان، ووافقوهم أيضاً في وقف القوانين الحديثة ولا حكم إلا للشرع المطهر (الحنبلي) أي التطرف في تقديس آراء ابن حنبل بل التطرف في احتكار الآراء الأخرى المخالفة، ووافقوهم أيضاً في منع الحجاج المصريين من الدخول بالسلاح ومنع المحمل ومنع إظهار الشرك وجميع المنكرات، وزايد العلماء على الإخوان في هذه المسألة مما يعد موافقة من العلماء على موقف الإخوان من حادث المحمل المصري قبلها، ويبدو الأمر كما لو أنّ ثمة اتفاقاً بين العلماء والإخوان على إثارة هذه المشاكل، فالإخوان يتساءلون عن معنى السكوت عن الشيعة في الأحساء والقطيف والتغاضي عن إدخالهم في دين الجماعة، وتأتي إجابة العلماء غاية في التطرف كأنما كانت تنتظر وترجو مثل هذا التساؤل لتوضح للإمام ابن سعود ما يجب عمله.

تقول الفتوى: «وأمّا الرافضة ـ أي الشيعة ـ فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام (أي يجبرهم على اعتناق الوهابية) ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل». أي إكراه لهم على ترك معتقدهم.

ووصف له بالبطلان، وهم ـ أي الشيعة ـ يحتفظون للوهابية بنفس الوصف ولكن صاحب القوة هو الأعلى صوتاً ونفوذاً.

ثم تستطرد الفتوى لتزيد وتؤكد بصيغة الإلزام ليس للشيعة وحدهم بل للإمام ابن سعود أيضاً: «وعلى الإمام أن يلزم نائبه عن الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعوه على دين الله ورسوله، وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم، وعلى ترك سائر البدع، من اجتماعهم على مآتمهم (يوم عاشوراء ذكرى استشهاد الحسين ﷺ) وغيرها مما

يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل..».

ونلاحظ هنا الحرص على أن تكون مكانة ابن بشر الفقيه أعلى من مكانة أمير الأحساء، وهو عبد الله بن جلوي ابن عم الملك، وأهم من أقام معه دعائم الدولة الوليدة، ومبعث هذا الحرص هو الإيحاء بتكاسل ابن جلوي عن إكراه واضطهاد الشيعة في الأحساء.

وقد كان ابن جلوي مشهوراً بقسوته مع قبائل العجمان المتحفزة للثورة كما كان حازماً مع الإخوان، ولم يكن يمكن أحداً منهم على أن يمارس نفوذاً في الأحساء، وبالتالي عاش الشيعة في أمن تحت ولايته عليهم.

ومن هنا تمتع ابن جلوي بكراهية العلماء والإخوان معاً، وأظهر موقفهم منه مدى الوحدة الفكرية والسياسية بينهم، حيث يجتمعون معاً حول فكر ابن عبد الوهاب الذي أفتى بتكفير الشيعة، وقاسى منهم الكثير في البصرة والعراق، ثم قاسى الشيعة من الدولة السعودية الكثير والكثير في الجزيرة العربية وفي العراق.

وجاءت قصة المعارضة الإخوانية لتعيد فصلاً من فصول الاضطهاد الديني في العصور الوسطى، ولا تكتفي فتاوى العلماء بما قالته عن الشيعة، بل تضيف إليه برنامجاً كاملاً لمحو التشيع وإحلال الوهابية محله.

تقول الفتوى: «ويمنعون من زيارة المشاهد ـ أي القبور المقدسة ـ كذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد» أي منعهم من دخول مساجدهم، وإلزامهم بدخول المساجد السنية الحنبلية الوهابية.

«ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة» أي وبالتالي منع شيوخهم من الصلاة معهم، أو الاجتماع بهم.

وتقول الفتوى بتعليمهم كتب ابن عبد الوهاب: «ويلزمون بتعليم ثلاثة الأصول، وكذلك إن كان لهم محال مبنية لإقامة البدع تهدم» أي هدم مساجدهم ومقدساتهم لأنها بدعة لدى التدين الوهابي، فماذا إذا مارسوا نفس البدع في المساجد السنية والوهابية.

وكأنّ الفتوى تتحفز للرد على هذا السؤال فتقول مباشرة: «ويمنعون من إقامة البدع في المساجد وغيرها» أي حتى في البيوت حتى لو اضطروا لممارسة طقوسهم خفية.

فما الحكم إذا رفض بعض الشيعة ذلك الإكراه في الدين، تسرع الفتوى بالإجابة وتقول: «ومن أبى قبول ذلك ينفى من بلاد المسلمين» أي أنّ الأحساء أصبحت بلاداً للمسلمين أي الوهابيين والإخوان، وأهل الأحساء وسكانها الأصليون إذا لم يقبلوا أن يكونوا وهابيين فليتركوا بلادهم التي لم تعد بلادهم.

وتنظر الفتوى بعين الرعاية أيضاً إلى شيعة القطيف، ويوجب العلماء على الإمام عبد العزيز أن ينفذ نفس الأوامر والنواهي الصادرة بحق الأحساء على شيعة القطيف، تقول الفتوى المباركة: «وأما الرافضة (الشيعة) من أهل القطيف: فيلزم الإمام ـ أيده الله ـ الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم بما ذكرنا». أي أن العلماء يلزمون عبد العزيز، والشيخ ابن بشر يلزم شيعة القطيف.

أي أن أولئك العلماء هم أصحاب الولاية الحقيقية حتى على السلطان القائم، تماماً كما يقول الشيعة في ولاية الفقيه على الحاكم السياسي.

وتتعرض الفتاوى إلى نقطة أخرى لم ترد في أسئلة الإخوان، وإن كان لا مانع من التكليف بها وهي «البوادي والقرى» التي دخلت في ولاية المسلمين: «فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين، ويلزم (الإمام) نوابه

ـ أي الأمراء ـ في كل ناحية بمساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام، ومنعهم من المحرمات».

وهذه الناحية الجديدة التي أفتى فيها العلماء دون أن يستفتيهم فيها أحد تعطي للعلماء وظائف جديدة، ونفوذاً سياسياً في المناطق المفتوحة يزيد على نفوذ الأمراء فيها.

وتقول الفتوى عن رافضة أو شيعة العراق: «وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول في مراتع المسلمين وأراضيهم».

وعن المكوس قالوا: «إنها من المحرمات الظاهرة، فإن تركها فهو الواجب عليه، وإن امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته من أجلها».

وأما الجهاد «فهو مخول إلى نظر الإمام. وعليه أن يراعي ما هو أصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء».

ويلاحظ أن الفتاوى تجاهلت إحراج الملك عبد العزيز في الرد على الانتقاد الموجه إليه بخصوص إرسال ابنه إلى مصر وابنه الآخر إلى لندن. كما تجاهلت الإجابة الصريحة على الموقف من أهل الكويت، أهم مسلمون تجوز التجارة معهم أم كفار يجب قتالهم، وأجابت الفتوى إجابة عامة عن تخويل الإمام ابن سعود في موضوع الجهاد على أن يعمل حسب الشريعة، أي حسب رأي العلماء.

وبالتالي يضعون أنفسهم في موقع السلطة بقدر ما يستطيعون.

ومع ذلك فإنّ معظم الفتوى كانت في صالح الإخوان وخصومتهم مع الملك.

ويقول مستشار الملك عبد العزيز حافظ وهبة: «إزاء هذه الفتوى اضطر الملك إلى عدم قبول المحمل، كما اضطر إلى هدم مسجد حمزة وتعطيل التلغراف اللاسلكي، فعمل بذلك على تلافي الفتنة أو تأجيل وقتها»[1].

ويلاحظ أنّ هناك بين كلمات حافظ وهبة كلاماً مسكوتاً عنه حمل الملك على أن يضطر على فعل أشياء لا يرضى عنها حتى يتلافى الفتنة أو يؤجل وقتها.

وربما كان ذلك الاضطرار بناءً على نصيحة من مستشاره المؤرخ حافظ وهبة، ولكن المؤكد ـ الذي سيظهر فيما بعد ـ أنّ الملك عبد العزيز لم ينس هذا الموقف للعلماء، وربما أدرك أنهم يلعبون معاً من خلف ظهره، خصوصاً وأنه بعد المؤتمر هاجم فيصل الدويش زعيم الإخوان (النجديين) قلعة «بسية» في العراق، وقتل كل من فيها استناداً إلى فتوى أولئك العلماء بمنع شيعة العراق من الدخول في مراعي المسلمين.

واستفحل تمرد فيصل الدويش حتى أنه رفض استدعاء عبد العزيز له واشتدت دعاية الإخوان ضده، ومحتمل جداً أن يكون قد شارك فيها المطوعة في الهجر، لأنّ اتهاماتهم لعبد العزيز منذ ذلك الوقت كانت تقترب من تكفيره بحجة أنه تحالف مع الانجليز على حساب التزامه الإسلامي حسبما يعتقدون.

وفي المؤتمر العام للرياض في (١٩٢٨/١١/٥م) كان واضحاً أنّ عبد العزيز قد حاول ما أمكن السيطرة على علمائه ليقفوا إلى جانبه بعدما تبين خطورة الموقف. ولكونهم في قبضته وقد أصبحت المسألة مسألة حياة أو موت فإنّ موقف العلماء أصبح أقرب إلى مهادنة عبد العزيز، ولذلك كان كلامهم بمثابة تبرير أو اعتذار لما سبق منهم من التلويح باتهامه بالكفر إذ أقسموا أنهم لم

(١) حافظ وهبة: الجزيرة العربية في القرن العشرين: ٢٩٣-٢٩١.

يكتشفوا قط أي فتور في غيرة ابن سعود على الدين، وإن كان قد أخطأ فلا بأس إذ لا يعطي هذا الخطأ المبرر لأحد أن يدير ظهره للملك، وحتى لا يتهمهم أحد بالخوف من عبد العزيز ـ ومن الواضح فعلاً أنهم كانوا خائفين ـ فإنهم أكدوا على أنهم لا يتحدثون خوفاً من عبد العزيز ولكن للنصح والإرشاد.

وأدرك ممثلو الإخوان تراجع العلماء في المؤتمر فأصروا على إحراجهم بطرح نفس الأسئلة التي يعرفون مسبقاً رأي العلماء فيها وأنه مخالف لرأي عبد العزيز وموافق لرأي الإخوان حيث يؤمن الفريقان (العلماء والإخوان) بنفس الفكر الذي كتبه الشيخ ابن عبد الوهاب دون تجديد.

وهكذا طرحوا أسئلة للعلماء وأقسموا على اتباع ما يقوله العلماء: وهي حكم الإسلام في التلغراف، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتساهل عبد العزيز فيه، موضوع القلاع ومنع الإخوان من الجهاد.

والملاحظ أنّ كل تلك القضايا قد تمت صياغتها بأسلوب فقهي ديني لمزيد من إحراج العلماء، كقولهم «وقف الناس عن القيام بالجهاد ولماذا أوقف نشر كلمة الله».

وهذه المسائل الأربعة هي تقريباً فحوى مؤتمر الأرطاوية في ديسمبر (١٩٢٦م)، والتي رد عليها العلماء في مؤتمر يناير (١٩٢٧م) بما يرضي الإخوان، وبما يزايد على عبد العزيز ومطالب الإخوان معه.

فعلى سبيل المثال ألزم العلماء عبد العزيز باتخاذ موقف حاسم ضد الشيعة في الأحساء، وفصلوا فيما يجب عليه أن يفعله بما يعطي لهم سلطة تفوق السلطة السياسية لابن جلوي حاكم الأحساء، وربما تفوق سلطة عبد العزيز نفسه.

وجاء الإخوان في المؤتمر العام التالي ليذكروا العلماء بنفس الموضوع تحت مصطلح ديني لا يجادل فيه أحد وهو «حض القرآن الكريم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ومدى تساهل عبد العزيز في هذا الموضوع الذي كان يشكل أحد أهم بنود التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني لديهم تنفيذ الإجراءات التي ألزم بها العلماء عبد العزيز في المؤتمر الماضي، ولم يتم تنفيذ شيء منها نظراً لأنّ ابن جلوي يحمي الشيعة في الأحساء بقدر ما يمنع الإخوان من التسلط في ولايته.

وطلب عبد العزيز رأي العلماء في الرد على تلك المشكلات، فجاءت فتواهم أكثر تقدمية في موضوع التلغراف، فبعد أن كانوا قد توقفوا في حكمهم بدون تحريم أو إباحة، نجدهم في المؤتمر العام يكررون نفس موقفهم مع إضافة موجهة للإخوان تقول: «طالما لا يستطيع المعارض أن يقدم دليلاً شرعياً على حرمتها فإنهم لا يرون حرجاً في استعمالها» أي ألقوا بالكرة في ملعب الإخوان.

وردّ عبد العزيز بالنيابة عن العلماء في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنه أرسل الدعاة وإذا كان هناك تقصير من المسؤولين فعليهم إبلاغه به.

وقال: إنّ القلاع أنشئت بسبب غارات فيصل الدويش وخوفاً من الإخوان وبمعنى آخر أنها حصون دفاعية وليست للهجوم على الإخوان بل خوفاً من هجوم الإخوان.

وأصرّ الإخوان على رأيهم في القلاع، وصمموا على استفتاء العلماء فيها، فجاءت فتوى العلماء مؤيدة للإخوان، فاضطر عبد العزيز للموافقة.

وفي موضوع الجهاد أو غزو البلاد المجاورة اجتمع عبد العزيز بخمسين منهم اجتماعاً خاصاً لإقناعهم، ورغم الاقتناع الظاهري فإنّ المؤتمر كان في الحقيقة تمهيداً لتحول المعارضة السياسية إلى تمرد عسكري جسمته معركة السبلة.

وفي هذا التحول أسهمت الهجر وفقهاؤها بدور كبير في الدعاية المضادة لابن سعود وحشد أنصار للإخوان، وأكّد الدويش على موضوع الغزو والجهاد ليزيد في إحراج عبد العزيز، وليتهمه بالكفر تأسيساً على اتهامه بالتحالف مع الانجليز، أو أنه باع نفسه إليهم، ويقول له: «ولكنك الآن تعاملنا بالسيف وتتغاضى عن النصارى ودينهم..».

وبعد انتصار السبلة كشّر عبد العزيز عن أنيابه للعلماء وشيوخ القبائل معاً، وهدّدهم بلهجة حاسمة بنفس مصير الإخوان إذا كرّروا ما سبق.

والملاحظ أنّ مؤتمري الدوادمي والشعراء قد اختفى فيهما صوت العلماء، ولم يعد أحد يستفتيهم أو يجعلهم حكماً بينهم وبين الملك. بل أصبح الملك هو الذي يتحدث عن الشرع ويهدد خصومه بلهجة حاسمة.

وبانتهاء التمرد الثاني انتهت معه سطوة العلماء مما أعطى لعبد العزيز حرية الاجتهاد السياسي بعيداً عن الانغلاق الفقهي الذي كان يمثّله الفقهاء، وينفذه بسيوفهم الإخوان، وبذلك أنهى عبد العزيز نظاماً أنشأه بنفسه، نظام الإخوان وآلية تثقيف البدو بالدعوة الوهابية.

آلية تثقيف البدو ليكونوا إخواناً:

قامت هذه الآلية على طريقتين، بالنسبة لشيوخ القبائل، كان يتم استدعاؤهم لإخبارهم بغلظة أنهم كفار، ويجب أن يعرفوا الإسلام، ثم يؤمرون بالانتظام في مدرسة العلماء المحلية في الرياض بينما يتم إرسال

ستة من العلماء في حراسة مشددة إلى نفس القبيلة لتفقيه أهلها، وعندما يصبح شيخ القبيلة متفقهاً في الوهابية يقيم له بيتاً في الرياض ليكون بجانب عبد العزيز.

وقام بالتثقيف العلماء ثم المطوعة.

العلماء هم أساتذة المطوعة، ويشتركون في القتال يوم الجهاد، وهم فلاسفة في غير أوقات الجهاد، ومثلهم في ذلك المطوعة، ويدور المطوعة بين القبائل في الصحراء في لباس تقشف مع القدرة على الإقناع وقوة الشكيمة أيضاً.

ولكن يعرف الحدود الفاصلة بين استعمال الحجة واللجوء إلى القوة. وبالطبع كان أولئك المطوعة همزة الوصل بين عبد العزيز والرعية العاديين والمسؤولين.

أما المحتوى الثقافي الذي تكوّنت على أساسه عقلية البدو ليكونوا إخواناً فكانت رسائل مبسّطة كتبها الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، وتم توزيعها على القبائل، وقام على تدريسها العلماء والمطوعة لشيوخ القبائل وأفرادها، واحتوت هذه النشرات على التحذير الشديد من الشرك والأمر بإنذار البغاة وأرباب البدع والضلال، والحرص على إرشادهم وتنوير أذهانهم، فإذا أصرّوا على الضلالة وجب تأديبهم، والأمر بالتنكيل لكل من يوالي أعداء الدين على إخوانه، أو يعمل بما يجرّ الضرر للمسلمين.. الخ.

واعتمدت على الترغيب والترهيب بصورة حسنة مبالغ فيها وأدخلت في روع البدو تصويراً محبباً لنعيم الجنة تتضاءل إلى جانبه متع الدنيا، وهي بطبيعتها نادرة لدى البدوي في بيئته القاحلة، وكان الجهاد يعني ذروة الخلاص للبدوي في الدنيا والآخرة، إذ يعني الغنائم الحلال في الدنيا

والنصر، أو الجنة ونعيمها في الآخرة.

والجهاد هو قتال المختلف في المذهب والعقيدة لأهون الأسباب طالما هم يمتلكون ناصية التكفير ويستعملونه حسبما يشاءون[1].

وبهذه الآلية توحدت الأيديولوجية بين العلماء والمطوعين للإخوان، وعزز هذه الأيديولوجية اشتراك أساتذة الإخوان (وهم العلماء) مع الإخوان في القتال، لذلك انتهت سطوة العلماء بانتهاء سطوة الإخوان، خصوصاً وأنّ أسلوبهم في الحرب كان انعكاساً لتلك الثقافة الوهابية الحرب.

تجسّد البناء الأيدويولوجي للإخوان:

وتثقيف الإخوان في الهجر توزع بين الصلاة وقراءة السيرة النبوية في الجهاد ورسائل الفكر الوهابي، وكانت الحرب هي التجسيد الحي لهذا التثقيف، ففي المعركة يشعر الإخواني أنه على وشك اجتياز الحاجز بين الدنيا والآخرة. والحرب ليست فقط المنفذ الوحيد لدخول الجنة، بل هي أيضاً المخرج الوحيد للخروج من الحياة الرتيبة داخل الهجر، وهي المحك العملي لما يتعلمونه في صلاتهم وتثقيفهم.

وصيحاتهم أثناء المعركة عكست هذه الأيديولوجية، ومنها: «هبت هبوب الجنة.. وين أنت يا باغيها.. أنا خيال التوحيد.. أخو من أطاع الله.. بين رأسك يا عدو الله.. أهل التوحيد أهل التوحيد.. أهل العوجاء أهل العوجاء» (أي أهل الرياض).

وعند افتتاح الهجوم يصيحون: «إياك نعبد وإياك نستعين»[2].

وعقيدتهم في التشوق للجنة واعتبار الحرب هي القنطرة التي توصلهم

---

[1] المختار: المرجع السابق ج٢/ص١٤٧.

[2] وهبة: الجزيرة العربية في القرن العشرين: ص٢٩٥.

للجنة تتجلى في صياحهم: «هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها»، وموالاة أنفسهم أو التعصب الذاتي وتكفير الآخر واستحلال دمه يظهر في قولهم: «أنا خيال التوحيد أخو من أطاع الله.. بين رأسك يا عدو الله».

ومعنى أنهم يبدأون الهجوم: «بإياك نعبد وإياك نستعين» أنّ الجهاد أصبح قرين الصلاة لديهم.. إذ تداخلت فريضتا الصلاة والجهاد لديهم، ففي كل هجرة توجد أسماء الرجال، وهي تراجع قبل كل صلاة، كما تراجع أيضاً قبل كل غزوة، والمتخلف عن الصلاة وعن القتال عقوبته الموت.

وحين يؤدون فرض الصلاة يتخذون الشكل العسكري إذ تظلّ البنادق مرافقة لهم حتى داخل المسجد، ولكن تكمم أفواهها، وتظل مدلاة في أجنابهم، أو توضع أمامهم في الصلاة، ثم يقفون في صفوف متماسكة خلف الإمام في الصلاة[1]، وخلفه في القتال، وإمامهم في الصلاة، هو قائدهم في الحرب.

ونأخذ تطبيقاً لذلك مما حدث في موقعة تربة أشهر معارك الإخوان، والتي هزموا فيها أقوى جيش للشريف حسين.

يقول عبد العزيز يصف المعركة: «كان لدى الشريف حسين عشرة آلاف جندي متمركزين في المدينة وسبعة آلاف جندي في الحجاز إضافة إلى عشرين مدفعاً وأربعين رشاشاً، وسؤن وذخيرة يحملها عشرة آلاف جمل، بينما وصل عدد الإخوان إلى حوالي ألفين، كان من بينهم خمسمائة أخ بدون سلاح، اللهم إلا السيوف والخناجر. كان الشريف حسين قد حفر خنادق يكفي عمق الواحد منها لتغطية قامة رجل من الرجال، وأقام تحصينات، كما قام أيضاً بوضع المدافع والرشاشات في كل موقع من

(1) [DICKSON ,OP. CIT.PP. 156,126].

وجدة.

وكان الإخوان أنفسهم ضحايا هذه المذابح، إذ اشتهروا بالتهور وهذا منطقي طالما يعتقدون أنّ الجنة تنتظرهم بما فيها من نعيم وحور عين وليس بينهم وبينها إلا الموت والقتل، على نحو ما يتردد في كتب التراث الذي تربوا عليه، وساعد على هذا الروح هتافاتهم الحماسية بالتقدم نحو الجنة، كما ساعد على ذلك أيضاً هجومهم العشوائي بأسلحة بدائية أمام أسلحة حديثة مثل المدافع والرشاشات والمركبات الحربية، وحدث هذا عندما واجهتهم الأسلحة البريطانية في جنوب العراق وشرق الأردن[1]. أي عندما خرجوا خارج نطاق الجزيرة العربية.

أما المذابح التي أقامها الإخوان لخصومهم فالحديث عنها يطول، ورأينا جانباً منها في روايتين لابن سعود والشريف عون بن هاشم عن موقعة تربة.

والواقع أنّ الإخوان كانوا يهجمون على الهدف بشكل خليط همجي من الرجال والخيول والإبل والمشاة يدمرون معسكر العدو، ويقتلون كل من يجدونه من البشر دون رحمة، فإذا كان الهدف مدينة أو قرية أضيف الأطفال والنساء والشيوخ إلى قائمة الضحايا.

ففي هجومهم على الكويت في معركة الجهرة قتلوا النساء سنة (١٩٢٠م)، ونفس الحال في هجومهم على ثريب في شرق الأردن سنة (١٩٢٤م)، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ عندما افتتحوا الطائف في (١٩٢١/٩/٧م)، وسجّل المراقبون الأجانب أن الإخوان لا يحتفظون بالأسرى وإنما يذبحون كل من يقع في أيديهم، وكانت الدعوات للانضمام إلى الوهابية أو الإسلام تحمل التهديد بالإعدام لمن لا يستجيب.

---

[1] خلة: محمود كامل: التطور السياسي في المملكة الأردنية. ٢١٧-٢١٨.

وتقول إحداها: «إن من ينضم إلينا يأمن على ممتلكاته وأسرته».

وقيل عنهم: أنهم ظلوا لعدة سنوات لا يخيفون الأطفال وحدهم، وإنما الكبار أيضاً..

وقد قتلوا جميع الرجال والنساء والأطفال في المنطقة ما بين المويلة وشرق الأردن، وقد أدّت هذه الوحشية إلى إنشاء البريطانيين قلعة بسية التي كانت سبب المعارضة السياسية والحربية بين الإخوان وعبد العزيز.

وقد اعترف اثنان من الإخوان الأحياء إلى جون حبيب، وقد قالا إنهما شاركا في الغارة التي توغل فيها الإخوان داخل العراق، وقد استغرقت المسيرة عشرة أيام، وأنهما فيما بينهما قتلا حوالي ألف شخص، وكان القتال يجري ليل نهار، وأنهما لم يناما سوى ثلاث ساعات فقط في اليوم، وكان طعامهما من التمر والخبز والقهوة، وحفنة من التمر.

وذيوع شهرة الإخوان بهذه الوحشية وقتل المدنيين بدون تمييز كان من عوامل الخلاف والتعارض بينهم وبين عبد العزيز الذي حاول أن ينبههم إلى ذلك مراراً، ورأينا كيف كان فيصل الدويش ورفاقه يريدون أن يكرّروا ما فعلوه في الطائف في المدينة وجدة..

وحين رفض عبد العزيز انسحب الدويش غاضباً.. ورأينا كيف اشترطت تلك المدن ألا يدخلها الإخوان مما جعل عبد العزيز يرسلهم إلى نجد، وكانت بداية مرحلة حاسمة للمعارضة الإخوانية. وعندما تمردوا وهاجموا إخوانهم الوهابيين من أتباع عبد العزيز، فإنهم قتلوا الشيوخ والنساء والأطفال كما ذكر حافظ وهبة القائل تحت عنوان (الإخوان): «إذا ذكر الإخوان على حدود العراق أو شرق الأردن أو الكويت استولى الرعب على قلوب السكان، وهب البدو يطوون الصحراء لائذين بالبلاد القريبة منهم يحتمون بجدرانها وأبراجها، فهم رسل الذعر والرعب في بلاد العرب».

ثم انطلق في التأريخ لهم إلى أن قال: «وقد ظهرت قوة الإخوان الحربية في هزيمة أهل الكويت هزيمة منكرة في موقعة حمض سنة (١٩١٩م)، ثم في حصار شيخ الكويت في الجهرة (١٩٢٠م)، وفي إبادة جيش الشريف عبد الله في موقعة تربة (١٩١٩م)، وفي هجومهم المتكرر على العراق والكويت وشرق الأردن.

ثم يشير حافظ وهبة إلى أنّ بعض هذه الغزوات والغارات كانت بدون إذن عبد العزيز، فيقول: «وبالرغم أنّ إمامهم كان ينهاهم كثيراً عن هذه الغزوات وأنه كان يأمرهم بالرفق وعدم القتل، وعلى الرغم من أنّ علماءهم كانوا يوصونهم بعدم قتل الأسير أو المستجير فإنهم لم يصغوا لأحد. وإنّ من يقرأ رسائل العلماء في الإنكار عليهم، وعلى أنصاف المتعلمين الذين سمموا أفكارهم يرى أنّ علماء نجد لم يقصّروا في النصيحة، ويعلم أن ما يأتيه بعض الإخوان مما تأباه طبائع العرب ولا تقرّه الشريعة الإسلامية، ولا يصحّ أن تلقى تبعته على علماء نجد أو الملك عبد العزيز»[1].

وهذه الكلمات الدبلوماسية لمستشار الملك عبد العزيز تستحق بعض التعليق، فالواضح أنه يريد تبرئة الملك عبد العزيز وعلماء نجد من المسؤولية.

وقد أوضح الملك عبد العزيز موقفه فتمرد عليه الإخوان وكفّروه. أمّا علماء نجد فقد كانوا إلى جانب الإخوان حتى أظهر لهم الملك عبد العزيز أنيابه فاضطروا إلى الانحياز إليه، أمّا المطوعة وفقهاء الإخوان، فقد ظلوا مع الإخوان حينما تحدد الاختيار بين نجد أو الإخوان أو بين الوهابيين التقليديين الحضريين والإخوان البدو الصحراويين.

ويقول: «إنّ ما يأتيه بعض الإخوان مما تأباه طبائع العرب ولا تقرّه

(١) حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين: ٢٨٨، ٢٨٥، ٢٩٧.

الشريعة الإسلامية».

والصحيح أنّ الشريعة الإسلامية الإلهية ترفض قتل المدنيين كما ترفض قتال من لم يعتد ولم يبدأ القتال، ولكن طبائع العرب استحلت قتل الأطفال والنساء في العصور الوسطى، وأتت هذه الشرعيات من نفس المنطقة، من نجد وما حول نجد، لقد عاش شيخ المؤرخين العرب محمد بن جرير الطبري وأدرك بداية القرامطة، ورأى على الطبيعة تخريبهم للعراق والشام، ولعل ذلك ما جعله يخشى على حياته، ويوجز التاريخ في السنوات الأخيرة من تاريخه، ومع هذا يقول بإيجاز سريع عن القرامطة «وفي هذه السنة ـ ٢٨٦ـ ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنابي من البحرين، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة، وكان خروجهم في ما ذكر في أول هذه السنة وكثر أصحابهم في جمادى الآخرة وقوي أمره فقتل من حوله من أهل القرى» أي قتل كل الأحياء في القرى..

ثم يتحدث الطبري عن غزوات ابن زكروية القرمطي في الشام سنة (٢٩٠هـ)، وكيف أطاعه أهل البوادي وغيرهم فاشتدت شوكته وسار إلى دمشق وصالحه أهلها على خراج يدفعونه إليه فانصرف عنهم، ثم سار إلى أطراف حمص فتغلب عليها وخطب له على منابرها وتسمى بالمهدي، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان وغيرهما، فقتل أهلها وقتل النساء، ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها حتى لم يبق منهم فيما قيل إلا اليسير، ثم سار إلى سلمية فحاربه أهلها ومنعوه من الدخول، ثم وادعهم وأعطاهم الأمان ففتحوا له بابها فدخلها فبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكان بها منهم جماعة فقتلهم، ثم ثنى بأهل سلمية فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم، ثم قتل صبيان الكتاتيب، ثم خرج منها وليس بها عين تطرف، وسار فيما

حوالي ذلك من القرى يقتل ويسبي ويحرق ويخيف السبيل»[١].

إذن اعتاد أولئك العرب أن يفعلوا ذلك تحت شرعية بشرية تحترف التدين وتستحل به دماء الأبرياء حتى الأطفال والنساء وبدون هذه الشرعية الدينية احترف البدو ـ في العصور الوسطى ـ السلب والنهب بالطريق (العلماني) أي بدون مبرر ديني. وكان الأطفال والنساء والشيوخ من بين الضحايا أيضاً، خصوصاً في قوافل الحج. مع أنّ الشرعية الإلهية تؤكد على حصانة الحجاج أثناء سيرهم إلى الحرم بالإضافة إلى حصانة الحرم في حد ذاته[٢].

والفارق بين غارات الأعراب العادية أو (العلمانية) وجهاد الأعراب تحت شرعية دينية بشرية أن غارات الأعراب العاديين كانت تستهدف السلب والنهب أساساً ولا تلجأ إلى القتل المباشر إلا مضطرة، فإذا تبين للأعراب أنّ القافلة تستعصي على الإغارة أعرضوا عنها، وإذا اشترت منهم القافلة سلامتها بالأموال سارت في حماية الأعراب أنفسهم.

ويختلف الأمر مع جهاد الأعراب أنه يستهدف الإبادة جنباً إلى جنب مع السلب والنهب والتدمير.. وقد أعطينا مثالاً ساطعاً رواه شيخ المؤرخين الطبري، وكان شاهدا عليه يوضح طبيعة الجهاد القرمطي لابن زكروية الذي تسمى بالمهدي، وهو لقب ديني وهو لا يختلف كثيراً عن جهاد الإخوان في عهد عبد العزيز الذي رصده حافظ وهبة وغيره من المؤرخين المعاصرين له.

وبقي أن نذكر شهادة أخرى لغارات البدو (العلمانية) في القرن الخامس الهجري، وقد ذكرها أشهر مؤرخي عصره عبد الرحمن بن الجوزي، وقد

---

[١] الطبري: محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠)، تاريخ الطبري: ١٠/٧١-١٠٠.

[٢] المائدة: ٢.

حدثت هذه الغارة سنة (٥٤٥ هـ)، وعاش ابن الجوزي إلى أن مات سنة (٥٩٧هـ)، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره في ذلك الوقت، وذكر الحادثة في تاريخه المنتظم، وملخصها أنّ العرب بعثوا يطلبون الأتاوة فرفض الحجاج واستمروا في سيرهم «فخرج عليهم العرب بعد العصر ليوم السبت رابع عشر من محرم فقاتلوهم، فكثرت العرب، فأخذوا من الثياب والأموال والجمال والأحمال ما لا يحصى، وأخذوا من الدنانير ألوفاً كثيرة، فتحدث جماعة من التجار أنه أخذ من هذا عشرة آلاف ومن هذا عشرون ألفاً ومن هذا ثلاثون ألفاً، وأخذ من خاتون أخت سعود ما قيمته ألف دينار، وتقطع الناس وهربوا على أقدامهم يمشون في البرية، فماتوا من الجوع والعطش والعري، وقيل أنّ النساء طين أجسامهم بالطين لستر العورة»[1].

ومع شناعة الوصف فإنّ الواضح أنّ اهتمام البدو بالسلب والنهب وليس بالقتل، ولو كان أولئك البدو متدينين أصحاب عقيدة تستحل الدماء وتجعله جهاداً لتكفّلوا بقتل الجميع.

شهادة مؤرخ معاصر للإخوان:

يقول حافظ وهبة عن البدو وحالهم بعد أن تشرّبوا الأيديولوجية الوهابية وأصبحوا إخواناً «لقد عرفت البدو في حروبهم وفي حياتهم البدوية، وعرفتهم بعد ما سكنوا الهجر، وعرفت كثيراً من قاداتهم في جاهليتهم ـ أي قبل الدخول في الوهابية ـ وإسلامهم ـ أي بعد دخولهم الوهابية ـ فرأيت أنّ الدين قد غيرهم تغييراً تاماً.

وكان البدوي لا همّ له إلا النهب والسلب وقطع الطريق، ثم هو يعدّ

(١) المنتظم لابن الجوزي: ١٨/ ٧٨.

هذا العمل من مفاخر البادية، والويل للضعيف في البادية، وكان لسان حالهم يقول: «المال مال الله، يوم لي ويوم لك، نصبح فقراء ونمسي أغنياء، ونصبح أغنياء ونمسي فقراء».

والقوافل التجارية كانت تحت رحمة البادية لا تمر من المنطقة إلا بأتاوة أو مجيز، والبدوي لا يمكن أبداً أن يخاطر بحياته، فإذا رأى أنّ النهب سيكون من ورائه خطر تركه، وكذلك إذا رأى دفاعاً قوياً من خصمه تركه، والبدوي لا يعرف قلبه الإخلاص تقريباً، شيمته الرياء والنفاق، لا تنفع معه إلا الشدة المشوبة بالعدل، لذا فلا يعول الأمراء كثيراً على عددهم ولا على قوتهم، وكثيراً ما كانوا وبالاً على صديقهم، فإذا بدرت منه بوادر الهزيمة فإنهم يكونون أوّل الناهبين له، ويحتجون بأنه ما دام صديقهم منهوباً أو مأخوذاً كما يقولون فهم أولى به.

ثم يقارن بأحوال البدو بعد أن أصبحوا إخواناً، فيقول: «أصبح الإخوان لا يهابون الموت بل يندفعون إليه اندفاعاً طلباً للشهادة ولقاء الله، وأصبحت الأم حين تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات: جمعنا الله وإياك في الجنة، وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب: «هبت هبوب الجنة وين (أين) أنت يا باغيها»، وكلماتهم عند الهجوم: «إياك نعبد وإياك نستعين».

ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية، فوجدتهم يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفاً، ويتقدمون إلى أعدائهم صفاً صفاً، ولا يفكر أحدهم في شيء إلا هزيمة العدو وقتله. والإخوان على العموم لا تعرف قلوبهم الرحمة على الأعداء ولا يفلت من تحت أيديهم أحد، فهم رسل الموت أينما حلوا[1].

أي كان البدوي يحترف السلب والنهب وابتزاز القوافل طالما لا يخاطر بحياته، وإذا تقابل مع من هو أقوى منه نافقه ووافقه إلى أن يجد فيه ضعفاً

---

(١) حافظ وهبة: المرجع السابق ٢٨٥-٢٨٦.

فينقلب عليه، ومع هذا الصنف المتقلب المنافق فالحل هو الشدة والعدل، أو بالتعبير القرآني ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1].

والتحول الذي طرأ على أولئك البدو بالثقافة الوهابية هو أنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم في مقابل الجنة والغنائم، ومن هنا كانوا يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفاً، وأصبحوا رسل الموت لأعدائهم، لا تعرف قلوبهم الرحمة على أعدائهم ...

والعدو هنا ـ وهذا هو الفارق الأساسي مع الشرعية الإلهية ـ هو من ليس منهم. أي هو الآخر المسالم، وكان هذا الآخر هو الانجليز والنصارى والمشركون من الشيعة والسنة من كان منهم مسالماً أو محارباً.

ثم أضيف للآخر الوهابيون من البادية ومن الحضر، ممن لم يهاجر ويعيش في الهجر ويرتدي العمامة، وعندما منع عبد العزيز ذلك في مؤتمر العلماء سنة (١٩١٩م) أصبح عبد العزيز نفسه مرشحاً ليكون الآخر في معارضتهم السياسية له، ثم جعلوه خصماً لهم تمردوا عليه، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ من الوهابيين المسالمين في تمردهم الثاني، وهذه إحدى ملامح التحول الإخواني الذي بدأ على البدو.

فالبدوي العادي غاية ما كان يفعله أن يتخلى عن عبد العزيز ويهرب عنه حين يشتد القتال، وقد يثور على عبد العزيز إذا وجد الثورة في مصلحته ولكنه في كل الأحوال يحرص على حياته ودمائه، وفي سبيل حرصه على حياته قد يحرص على حياة خصمه إذا كان قوياً يخشى منه، أو كان يريد سلب أمواله فقط، ولا مصلحة له في قتله، ونسي البدو ذلك حين أصبحوا بالأيديولوجية الوهابية أكثر حرصاً على قتل أنفسهم وقتل الآخرين، وبالتالي أصبحت معارضتهم لا تعرف الوسط ولا تعرف الحدود

(١) الأنفال: ٦٠.

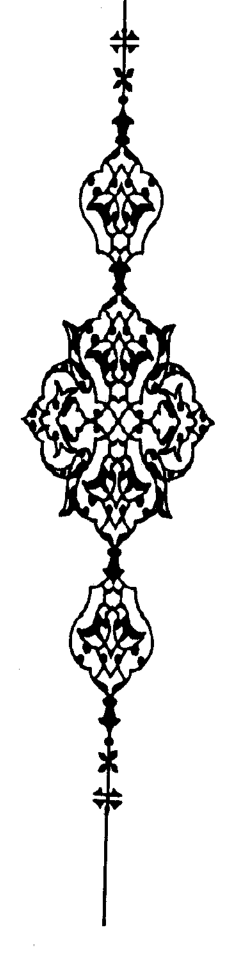
السياسية المصلحية والسياسة هي فن الـ (COMPROMISING) التي لا ينفي فيها طرف الطرف الآخر، وهذا ما لا يمكن حدوثه في حالة عبد العزيز والإخوان.

أي كان عبد العزيز يستطيع أن يصل إلى نوع من التراضي مع البدو، لكن بعد أن حولهم إلى إخوان ما كان يستطيع ذلك، والدليل على ذلك أن عبد العزيز جرب معهم التساهل والتسامح فما أفلح، فازدادوا طغياناً، وجرب معهم الشدة، ثم عفا عنهم، فعاد الدويش للثورة وعادت عتيبة للثورة مرتين..

وأدرك عبد العزيز في النهاية أنه لا سبيل أمامه إلا بنفيهم من حياته السياسية وتكوين إخوان جدد من نوع مختلف، يستطيع المكر والتلاعب مع العدوان، وأهم من ذلك أن يكون بعيداً عن الجزيرة العربية ليأمن عبد العزيز شرّه.

وبهذا كوّن عبد العزيز الإخوان المسلمين في مصر، وحرّم عليهم في نفس الوقت العمل داخل دولته..

وندخل بذلك على أكبر خطيئة زرعها عبد العزيز في مصر والعالم: الإخوان المسلمون، إذ أنه بدلاً من إصلاح الفكر الوهابي من داخل الإسلام فإنّه قام بتصدير الوهابية إلى مصر ليحرق مصر والعالم، وهذا ما نريد منعه.



الفصل الثاني

حاجة عبد العزيز لضم مصر للوهابية

الفصل الثاني

حاجة عبد العزيز لضم مصر للوهابية

قامت الدولة السعودية الثالثة بقيادة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وخلال سنوات التأسيس هذه كانت لعبد العزيز رؤيته الواضحة في إرساء دعائم الدولة الثالثة حتى تستمر ولا تسقط مثل الدولتين السابقتين.

وتتلخص هذه الرؤية في التمسك بالأيديولوجية الوهابية والتسلل بها إلى مصر لتكون مصر عمقاً استراتيجياً للدولة السعودية، وتستطيع من خلالها السيطرة على العالم الإسلامي.

وكانت النتيجة نجاح عبد العزيز آل سعود في تحويل التدين المصري القائم على التسامح حتى في العصور الوسطى إلى تدين وهابي متشدد في عصر حقوق الإنسان.

ونأتي للسؤال التالي، وهو: كيف؟ كيف تم هذا التحول؟

في الوقت الذي كان فيه عبد العزيز وآله لاجئين تحت رعاية آل الصباح في الكويت كان الإمام محمد عبده في مصر يعلن تطليقه للسياسة والثورة وتفرغه للإصلاح الديني والفكري، واعتبر التصوف خرافة كما وقف موقفاً

حازماً من الفقه والأحاديث، واعتبر الأحاديث كلها أحاديث آحاد، وأعاد للأذهان ما قاله الأئمة المجتهدون في عصر الازدهار الفكري.

وكان محمد عبده يأمل في تأسيس مدرسة فكرية للاجتهاد الديني تقوم بإصلاح عقائد المسلمين وتسهم في تطورهم العقلي والعصري، وكان هذا اقتناعه بعد تطليق السياسة ولعنها.

ولم يكن محمد عبده يدرى أنّ حركته سيقوم بإجهاضها تلميذه رشيد رضا لصالح السعوديين وأيديولوجيتهم السلفية الثورية.

مات محمد عبده سنة (١٩٠٥م)، وفي ذلك الوقت كان عبد العزيز قد هرب من الكويت بأربعين من «إخوانه»، وبهم استولى على الرياض سنة (١٩٠٢م)، ثم سيطر على أواسط نجد سنة (١٩٠٤م).

وبعد موت محمد عبده في مصر ورثه رشيد رضا. وكانت الأنباء تأتي إلى مصر بانتصارات الشاب ابن سعود ونجاحه في ضم الإحساء والمنطقة الشرقية، ثم نجح بعدها في ضم عسير، وحاصر الشريف حسين في الحجاز، ثم انتزع منه الحجاز سنة (١٩٢٦م) ليحتل ابن سعود بعدها موقعاً متميزاً جفف به دموع الملايين الذين حزنوا على إلغاء الخلافة العثمانية.

ثم قام ابن سعود بإعطاء مملكته الوليدة اسم أسرته السعودية سنة (١٩٣٢م) بنفس المنهج السائد في العصور الوسطى حين يطلق الحاكم على دولته اسمه أو اسم أسرته، كالدولة الأخشيدية والطولونية والفاطمية والعباسية.

ومع هذا النجاح لابن سعود فقد كان يدرك أن توسعه في شبه الجزيرة العربية قد أضاف ألغاماً كثيرة تحت عباءته، فأعدى أعدائه وهم الشيعة يرتكزون في المنطقة الشرقية، كما أنّ الأشراف والصوفية في الحجاز لا ينسون ثأرهم عنده بعد ما فعله بالحجاز وأسرة الشريف حسين، وفي

الخارج يقف أعداؤه الشيعة الزيدية في اليمن بعد أن استولى على عسير، وهناك شيعة إيران والعراق والخليج وهم لا ينسون ما فعله وما سيفعله بالمشاهد الشيعية في العراق، علاوة على أنّ أبناء خصمه الشريف حسين كانوا يحكمون العراق والأردن، أي أنّ أعداءه يطوّقونه من كل الاتجاهات، ولهم جماهير في أهم منطقتين في مملكته، المنطقة الشرقية بجوار نجد، والحجاز، وهم لا يغفرون له أنه محا وجودهم حين جعلهم سعوديين، أي موالي وعبيداً لأسرته.

وهكذا لم يعد أمام ابن سعود إلا مصر يتكئ عليها في صراع البقاء وفي أمل الاستقرار والاستمرار أيضاً. فمن مصر جاء الخطر الذي دمر الدولة السعودية الأولى، ومنها يمكن أن يأتي الخطر الذي سيقضي على الدولة السعودية الثالثة، خصوصاً وأنّ التصوف هو التدين المصري الأساسي والدعاية ضد الوهابيين على أشدّها في مصر، ومن الممكن أن تتطور ثقافة الكراهية ضد الوهابية إلى تحالف عسكري أو سياسي خصوصاً مع طموح ابن سعود للسيطرة على الحجاز والذي كان دائماً تحت السيطرة المصرية.

ومن الممكن أن يتفادى ابن سعود هذا الخطر المصري، بل يستغل مصر إلى جانبه إذا تحول التدين السني الصوفي المصري المعتدل إلى تدين سني وهابي متطرف. وليس ذلك مستحيلاً، فالمهم هو العثور على الشخصية المناسبة التي تقوم بخلق هذا التحول، وكان سهلاً العثور على هذه الشخصية.

وهنا بدأ دور الشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده والذي خان مسيرته الإصلاحية وعمل عميلاً لابن سعود. وكانت الأحوال مناسبة لذلك التحول.

جاء الشيخ رضا إلى مصر يحمل بين جوانحه الفكر السلفي مع كراهية

موروثة للمسيحيين استقاها من بيئته الشامية، ولكنه كتم هذه الثقافة الشامية داخله أثناء تبعيته لشيخه الإمام محمد عبده.

وبعد موت الإمام لم يكن رشيد رضا مؤهلاً للسير في طريق شيخه في معاداته لشيوخ الأزهر، إذا كان محمد عبده بفكره ومصريته وأزهريته وتاريخه ومكانته وشخصيته أقدر على الصدام مع شيوخ الأزهر، فهو منهم وهم منه، وهو أعلاهم قدراً وأرجحهم عقلاً وأكبرهم علماً وأكثرهم شهرة، ومع ذلك فقد عانى منهم ما عانى في جهاده الإصلاحي، فكيف بتلميذه الوافد من الشام إذا كان فعلاً يريد السير في طريق شيخه الإمام؟

على أنّ رشيد رضا قد يوافق فكر الإمام محمد عبده في الهجوم على التصوف وأوليائه إلا أنه لا يوافقه في انتقاد الأحاديث وفي انتقاده لتحجر الفكر الوهابي.

وعندما مات شيخه الإمام وجد فرصته في الزعامة ميسورة إذا تحالف مع ابن سعود، خصوصاً وقد جرت مياه كثيرة في النهر، إذ علا نفوذ ابن سعود في شبه الجزيرة العربية وبدأت الأحلام تتجمع حوله خصوصاً مع استقلاليته وشبابه ومقدرته، ثم بدأ تيار الشيوخ يميل إلى التعصب بعد إلغاء الخلافة وشدة التيار العلماني في تركيا، ثم في مصر والشام، وارتفع صوت الإلحاد متشجعاً بالليبرالية الفكرية والنفوذ الاستعماري، وكل ذلك أثار حفيظة الشيوخ العاديين والصوفيين والسلفيين وقرب المسافة بينهم. خصوصاً وقد كان أئمة العلمانيين في مصر من مثقفي الشوام المسيحيين والذين هاجروا لمصر بعد المذابح الطائفية في لبنان.

وكان لابد أن تشتعل المعركة بين رشيد رضا وبينهم، وفي هذا الجو أتيح لرشيد رضا أن يثمر تحالفه مع ابن سعود في نشر الفكر الوهابي بعد أن سيطر عبد العزيز على الحجاز وجعل من مناسبة الحج منبراً لنشر

الدعوة وتجميع الأمصار وإعداد الكوادر وإعداد الخطط وتنفيذها. ودليلنا على ذلك أن عام (١٩٢٦م) الذي شهد أول موسم للحج بعد سقوط الحجاز هو أنشط الأعوام في نشر الفكر السلفي في مصر وخارجها.

نبذة عن أحوال مصر الثقافية في النصف الأول من القرن العشرين:

كان التصوف هو التدين السائد تحت شعار السنة في العالم الإسلامي السني، وكانت الوهابية السنية هي الاستثناء من هذه القاعدة مع وجود أنصار لها في مصر وشمال أفريقيا، وكان الوهابيون ينقمون على الشيعة والصوفية عبادتهم للأضرحة وتقديسهم للبشر، وكان الوهابيون على حق في ذلك، وكان الشيعة والصوفية ينقمون على الوهابيين استحلالهم لدماء المسلمين المسالمين وهدمهم لما يعتبرونه مقدسات، وكانوا على حق في ذلك.

وبين هؤلاء وأولئك برز صوت مجتهد لم يلبث أن ضاع في الزحام، هو صوت الإمام محمد عبده (المتوفى: ١٩٠٥م) الذي انتقد الصوفية في تخلفهم العقلي كما انتقد الوهابية في تزمتهم وتشددهم، ووضع أصولاً للإسلام تخالف الأيديولوجية الوهابية، هي:

١- قيام الإيمان على العقل.

٢- تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض بينهما.

٣- الابتعاد عن التكفير.

٤- التفكر بسنن الله في الخلق، أي الاستدلال العلمي.

٥- هدم السلطة الدينية والدولة الدينية فليس في الإسلام سلطة دينية. وإنما دولة مدنية، ولم يجعل الإسلام لأيّ فرد أو جماعة سلطة على العقائد

وتقرير الأحكام.

٦- حماية الدعوة لمنع الفتنة، فالقتال في الإسلام لرد الاعتداء وليس في التكفير والإكراه في الدين.

٧- ومودة المخالفين في العقيدة.

٨- والجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، والنبي لم يقل بع ما تملك واتبعني، ونهى عن الغلو في الدين، وأباح الزينة والطيبات[1].

ومع علو مكانة الإمام محمد عبده الدينية والسياسية ووجوده في مصر الأكثر انفتاحاً إلا أنّ المناخ العام السائد أجهض دعوته، فمات يلعن الشيوخ الذين أضاعوا الإسلام.

ومن عجب أن يحاط عبد العزيز باثنين من أصدقائه كلاهما أدرك هذه الحقائق الإسلامية التي أرساها محمد عبده في مطلع القرن العشرين، والاثنان وهما حافظ وهبة والصحفي النمساوي المسلم محمد أسد، وقد حاولا معاً اختراق حاجز المستحيل الذي أعجز الإمام محمد عبده.

حافظ وهبة هو مستشار عبد العزيز آل سعود، والذي رسم له سياسته من الألف إلى الياء.

وقد تجاهل حافظ وهبة التناقض بين منهج محمد عبده والمنهج الوهابي، وزعم أنّ الإمام محمد عبده كان يشيد بابن عبد الوهاب، وقد كانت مشورة حافظ وهبة ضرورية لعبد العزيز، وأقامت فجوة بين عبد العزيز والمستوى الفقهي لعلماء الوهابية المشهورين بتزمتهم وجمودهم، وحافظ وهبة بذلك حقق بدهائه بعض ما كان الإمام محمد عبده يدعو إليه

---

[1] الإمام محمد عبده: الإسلام بين العلم والمدنية: ٢/١٢٤-١٠١. سلسلة التنوير، مصر: الهيئة العامة للكتاب: ١٩٩٣.

من نبذ الجمود والتخلص منه»[1].

وأعان عبد العزيز على مواجهة جريئة لأحد أهم المستحيلات في عصره وهو المناخ السياسي السائد.

أما محمد أسد فقد عرف الإسلام عن طريق القرآن، وبالفهم المباشر للآيات أدرك من حقائق الإسلام ما لم يدركه علماء الإسلام في القرون الوسطى والعصر الحديث، ومع أنه لم ير الإمام محمد عبده، ولم يظهر في كتابه (الطريق إلى مكة) أنه قرأ شيئاً من مؤلفاته إلا أنّ الاتفاق بينهما واضح لأنّ منهجهما اتفق في الرجوع إلى القرآن والاحتكام إليه واعتبار سنة النبي محمد ﷺ تطبيقاً للقرآن وليست مختلفة عنه أو مناقضة له.

وفيما بعد قابل محمد أسد الشيخ المراغي قبل أن يكون شيخاً للأزهر بعدة سنوات، وننقل من كتاب محمد أسد وصفه للحركة العلمية في الأزهر وتعليق الشيخ المراغي وقتها عليها.

يقول محمد أسد:

«وفي اجتهادي لأخذ صورة أكمل عما كان الإسلام يعنيه في الحق، أخذت فائدة كبرى من الإيضاحات والتفسيرات التي تمكن من تزويدي بها إخواني المسلمون القاهريون. وكان من أبرزهم الشيخ مصطفى المراغي، وهو من أشهر علماء الإسلام في ذلك الوقت، وألمع علماء الجامع الأزهر، بما لا يقبل الشك (وقد قدر له أن يصبح شيخه بعد ذلك ببضع سنوات).

ولابد أنه كان في منتصف العقد الخامس من العمر في ذلك الحين، إلا أنّ جسمه الممتلئ العضلي كانت له خفة ابن العشرين وحيويته. وبالرغم من علمه وسعة اطلاعه ووقاره فإنه كان دائماً فكّها بشوشاً. وإذا كان الشيخ

---

[1] الإمام محمد عبده: نفس المرجع: ٢/١٧٤-١٥١.

المراغي تلميذاً للمصلح المصري العظيم محمد عبده، ورافق في صباه تلك الجذوة المتقدة، جمال الدين الأفغاني، فقد كان هو نفسه مفكراً وناقداً ثاقب الرأي. إنه لم يتوانَ قط عن أن يشعرني بأنّ المسلمين في العصر الحديث قد قصّروا في الحق تقصيراً كبيراً عن مثل دينهم..

دخلنا إلى صحن الجامع فوجدت التلاميذ، وكانوا يرتدون الجبات الطويلة السوداء ويضعون العمامة البيضاء فوق رؤوسهم، جالسين على حصر من قش، يقرأون في أصوات منخفضة في كتبهم ومخطوطاتهم، وكانت المحاضرات تلقى في قاعة المجلس الكبرى حيث كان عدد من المدرسين يجلسون على حصر كذلك تحت الدعامات التي كانت تقطع القاعة في صفوف طويلة.

وفي شبه دائرة أمام كل مدرس كان فريق من الطلبة يجلسون القرفصاء. ولم يكن المدرس ليرفع من صوته أبداً، وهكذا فقد كان واضحاً أنّ الانتباه والتركيز إلى أقصى الحدود كانا ضروريين بسبيل التقاط كل كلمة تخرج من فمه، وكان لابدّ لي من الاعتقاد أنّ مثل هذا الاستغراق من شأنه أن يفضي إلى المعرفة الحقيقية، ولكن الشيخ المراغي سرعان ما بدد أوهامي حين قال: «هل ترى إلى هؤلاء العلماء هناك؟ أنهم مثل تلك البقرات المقدسة في الهند، التي تلتهم، كما قيل لي، كل ما تستطيع العثور عليه في الشوارع من أوراق مطبوعة.. أجل إنهم يزدردون كل الصفحات المطبوعة من الكتب التي كتبت منذ قرون عدة، ولكنهم لا يهضمونها. إنهم لم يعودوا يفكرون لأنفسهم. إنهم يقرأون ويرددون، يقرأون ويرددون، والتلاميذ الذين يصغون إليهم لا يتعلمون إلا أن يقرأوا ويردّدوا، جيلاً بعد جيل».

وقاطعته قائلاً: «ولكن الأزهر، يا شيخ مصطفى، على كل حال، مركز

العلوم الإسلامية وأقدم جامعة في العالم!، إنّ المرء لتقع عيناه على اسمه في كل صفحة تقريباً من التاريخ الإسلامي الثقافي. وما قولك بالمفكرين ورجال الدين والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين العظام الذين أخرجهم الأزهر خلال القرون العشرة الأخيرة؟».

فأجابني بمرارة: «لقد انقطع عن إخراجهم منذ عدة قرون. لربما كان في ذلك بعض المبالغة، ذلك أنّ مفكراً مستقلاً كان يظهر من الأزهر بين الحين والحين حتى في الأزمنة الحديثة. ولكن الأزهر، بصورة عامة، أصيب بالعقم الذي يشكو منه العالم الإسلامي كله اليوم، وانطفأت جذوته المتقدة. إنّ أولئك المفكرين المسلمين المتقدمين الذين ذكرتهم لم يحلموا قط بأن أفكارهم، بعد هذه القرون العديدة، بدلاً من أن تستمر وتنمو وتتطور، يقدر لها أن تعاد وتعاد، كأنما هي حقائق الإسلام غير القابلة للخطأ. فلو أردنا أن نبدل حالتنا بأحسن منها، فإنّ علينا أن نشجع التفكير الحي بدلاً من تقليد ما سبق من أفكار..».

ولقد ساعدني وصف الشيخ المراغي الحاسم للأزهر على أن أدرك سبباً من أعمق أسباب الانحطاط الثقافي الذي يبهر المرء في كل مكان في العالم الإسلامي. ألم يكن هذا التحجر العلمي لهذه الجامعة القديمة منعكساً، إلى درجات مختلفة في العقم الاجتماعي للحاضر الإسلامي»[1].

وتولى الشيخ المراغي مشيخة الأزهر وظلت المناهج العقيمة كما هي، ولم يفلح في تغييرها لأنّ المناخ لم يسمح.. وعندما حاول شيخ الأزهر الحالي في أواخر القرن العشرين تخفيف بعض المقررات الدراسية في الأزهر ثار عليه الجميع واتهموه بما يشبه الكفر حتى اضطر في مجلس الشعب إلى أن يقسم أنه يفعل ذلك لمصلحة الإسلام.

---

(١) محمد أسد: المرجع السابق: ٢٣٢-٢٣١.

جيل الاحتجاج المصري في النصف الأول من القرن العشرين:

تمتع المصريون بنوع من الليبرالية السياسية بدأت مع عصر إسماعيل وتطورت بعد دستور (١٩٢٣م) في قيام حركة حزبية نشطة وبرلمان نشط وانتخابات وحرية صحافة لم يعرفها العالم العربي وقتها، بل ربما حتى الآن. إلا أنّ هذه الليبرالية المصرية الفوقية في دنيا السياسة حصرت العمل السياسي في الطبقة العليا من المجتمع ومعها بعض الشرائح العليا من الطبقة الوسطى. وجاء الجيل الجديد المتعلم من أبناء الطبقة الوسطى فلم يجد له متسعاً في التوظيف أو العمل السياسي. وبجانب هذا القصور عن استيعاب الأجيال الصاعدة الطموحة كانت هناك ظاهرة أخطر هي انعدام العدل الاجتماعي ووجود فجوة هائلة بين الأغنياء والفقراء، قيل عنه (مجتمع النصف في المائة) حيث كان يملك الثروة في مصر نصف في المائة من عدد السكان. (وهو نفس الحال الآن). أسهم القصور الليبرالي والظلم الاجتماعي عن ظهور جيل جديد متنمر متمرد ساخط، استغل الليبرالية السياسية وقتها في إثراء حركات التطرف بكل أنواعها، الشيوعية، ومصر الفتاة والإخوان المسلمين.

أي أنّ التخلف الثقافي في الفكر الديني مع حركات الاحتجاج الشبابية جهزت مناخاً ملائماً لنجاح الوهابية في غزو مصر دينياً لتغير تاريخها وتاريخ العالم. كانت تلك البيئة المريضة هي المناسبة لنمو حركة الإخوان المسلمين وتطورها وتوسعها. وهي نفس البيئة التي نعيشها الآن.

نشأة حركة الإخوان المسلمين في مصر بين حافظ وهبة ورشيد رضا:

وقد كان حافظ وهبة مهتماً بتوثيق العلاقات بين الملك عبد العزيز ومصر، يقول مثلا في تاريخه لأحداث الصراع بين الملك عبد العزيز والشريف حسين: «وفي سبتمبر سنة (١٩٢٥م) وصل فضيلة الشيخ المراغي وكان رئيساً للمحكمة العليا الشرعية ومعه عبد الوهاب بك طلعت من موظفي السرايا ومعهما كتاب رقيق من جلالة ملك مصر جواباً لكتاب سلطان نجد بمناسبة عزمه على زيارة مكة».

ويقول حافظ وهبة معبّراً عن مشاعره: «إنه ظرف ملائم جداً وفرصة نادرة لتوثيق العلائق بين مصر ونجد، وسلطان نجد كان ولا يزال معترفاً بزعامة مصر من وجهة الثقافة والمدنية ويجب أن توطد العلائق بينه وبين مصر»[1].

ومصر في حد ذاتها هي المشكلة الكبرى لعبد العزيز، فهي التي كانت تسيطر على الحجاز في العصر المملوكي، واستمر نفوذها الأدبي فيه إلى أن اصطدم بإخوان عبد العزيز في حادث المحمل، ومن الطبيعي أن يقوم بتطبيع العلاقات معها بعد استيلائه على الحجاز.

ونلاحظ حرصاً زائداً من عبد العزيز ومستشاره حافظ وهبة على استمالة مصر بكل طريقة إلى السلطة الجديدة. كما أنّ مصر هي التي أسقطت الدولة السعودية الأولى وأسهمت بالإيجاب والسلب في سقوط الدولة الثانية، وبالتالي فإنّ مصير الدولة السعودية الثالثة لابد أن يرتبط بمصر إيجاباً وسلباً، فمصر هي أقدم دولة في المنطقة وكانت دولة عبد

---

(١) حافظ وهبة: المرجع السابق: ٢٦٨.

العزيز وقتئذ أحدث دولة في المنطقة (قبل قيام إسرائيل).

ومن الممكن أن يكون العمق المصري رصيداً للكراهية والحرب ضد الدولة الجديدة يتعامل ضدها مع الأردن والعراق حيث الأشراف (فيصل، وعبد الله)، وفي اليمن بالإضافة إلى الشيعة في الأحساء وفي الحجاز، فيتم بمصر ذلك الحصار وتختنق دولة عبد العزيز.

ومن الممكن أيضاً أن يكون العمق المصري رصيداً لدولة عبد العزيز ترتكز عليه في مواجهة أولئك الخصوم المتربصين بها في الشرق والشمال والجنوب.

ومن هنا كان لابد من كسب مصر إلى جانبهم بكل وسيلة، وقد حاول عبد العزيز ومعه مستشاره الداهية حافظ وهبة ونجح.. على المستوى الرسمي أمكن تفادي حادث المحمل، وعلى المستوى الشعبي والثقافي بدأ انقلاب خطير منذ سنة (١٩٢٦م) تمثل في بداية تحويل التدين المصري السني الصوفي إلى تدين سني وهابي، ليكون العمق المصري الشعبي والحضاري امتداداً للدعوة النجدية والدولة السعودية الثالثة، وكان سمسار هذا التحول في مصر اثنين من الشيوخ الشوام، وهما محب الدين الخطيب، ورشيد رضا، وعن طريق رشيد رضا بالذات تسلل الفقه الوهابي إلى مصر عبر الطرق الآتية:

١- الجمعية الشرعية: أسسها الشيخ محمود خطاب السبكي سنة (١٩١٣م) على أساس الولاء المطلق للتصوف، وفي إخضاع الفقه للتصوف كتب الشيخ محمود السبكي أولى مؤلفاته: (أغلب المسالك المحمودية في التصوف والأحكام الفقهية) في أربعة أجزاء.

ولكن في (١٩٢٦م) اتخذت مؤلفاته طابعاً جديداً تحت شعار الدفاع عن السنة، وبالطريقة الوهابية أخذ يهاجم التصوف تحت هذا الشعار، وفي هذا

الاتجاه الجديد كتب (٢٦ كتاباً) إلى أن مات سنة (١٩٣١م)، وعلى طريقه سار ابنه أمين السبكي فقد كتب في الدعوه الوهابية تسعة من الكتب وتوفي سنة (١٩٦٨م)، وهكذا.

وبالنفوذ السعودي الذي أرساه رشيد رضا انتشرت مساجد الجمعية الشرعية، وهي الآن أضخم جمعية في مصر، تسيطر على أكثر من ألفي مسجد وألوف الأئمة الوعاظ، وملايين الأتباع، وكانت ولا تزال الاحتياط الاستراتيجي للإخوان المسلمين، وهم - أي الجمعية الشرعية والإخوان المسلمون - هم مادة الفكر السلفي وحركته في المجتمع المصري.

٢- جمعية أنصار السنة: في نفس العام (١٩٢٦م) أقامها الشيخ حامد الفقي أحد الأزهريين، وقد أنشأ له عبد العزيز آل سعود منزلاً في حي عابدين كان مقراً للدعوة الوهابية، وتخصصت هذه الجمعية في نشر الفكر الوهابي ومؤلفات ابن تيمية وابن القيم، كما أنشأ (مجلة الهدي النبوي) سنة (١٩٣٦م) ولا تزال تصدر.

٣- جمعية الشبان المسلمين: أنشئت سنة (١٩٢٧م) بتخطيط محب الدين الخطيب رفيق الشيخ رشيد رضا الشامي في الدعوة السلفية، وتولى رئاستها الدكتور عبد الحميد سعيد، والاتجاه الحركي يغلب على هذه الجمعية وانتشرت وسط الشباب، وكان حسن البنا هو أهم الشباب فيها، ومع أنه أنشأ الإخوان المسلمين على غرار جماعة الإخوان التي أنشأها عبد العزيز آل سعود، إلا أنّ حسن البنا كان دائم التردد على جمعية الشبان المسلمين، وقد قتل أمام أبوابها سنة (١٩٤٨م).

٤- جماعة الإخوان المسلمين: سنة (١٩٢٨م) وهي الاتجاه الحركي السياسي المسلح، وكان إنشاؤها بعناية رشيد رضا وتوجيهاته. ورشيد رضا هو الذي قام بتقديم الشاب حسن البنا إلى أعيان السعودية وأعمدة الدعوة

الوهابية، ومنهم حافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز، ومحمد نصيف أشهر أعيان جدة، وابنه عبد الله نصيف هو الذي يتزعم رابطة العالم الإسلامي، والتي يتغلغل من خلالها النفوذ السعودي إلى العالم الإسلامي حتى اليوم، وهي التي لعبت دوراً في تجنيد الشبان للذهاب إلى أفغانستان وتدريبهم هناك.

ونعود إلى الشيخ رشيد رضا وجهوده خارج نطاق الجمعيات لنلمح إلى تأسيسه مدرسة الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة في جزيرة الروضة سنة (١٩١٢م)، وكانت تجاوره مؤسسة الزهراء للسلفي الشامي محب الدين الخطيب في نفس المنطقة، كما كانت مجلته (المنار) ذائعة الصيت متخصصة في الدعوة الوهابية والسعودية، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته المتخصصة (كالخلافة والسنة والشيعة)، وفيها يدعو إلى الخلافة الإسلامية، ويرى في ابن سعود المؤهل الوحيد للخلافة.

وعن طريق مطبعة المنار نشر رشيد رضا الكثير من مؤلفات ابن حنبل وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، وتوفي رشيد رضا بعد أن قام بتوديع الأمير سعود ولي العهد في ميناء السويس سنة (١٩٣٥م)، وترك الراية يحملها وراءه تلميذه حسن البنا مؤسس الإخوان[١]..

والشيخ حسن البنا اعترف في مذكراته (الدعوة والداعية) بصلته بالشيخ حافظ وهبة والدوائر السعودية، والأستاذ جمال البنا شقيق حسن البنا يعترف بتلك الصلة بين شقيقه الأكبر ووالده والسلطات السعودية، في كتابه (خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه)، والدكتور محمد حسين هيكل في مذكراته عن السياسة المصرية يشير إلى معرفته بالشاب حسن

---

(١) د. محمد أبو الإسعاد: السعودية والإخوان المسلمون: نشر مركز الدراسات والمعلومات القانونية: ٢٧، ٤١.

البنا في موسم الحج سنة (١٩٣٦م)، وكيف أنّ حسن البنا كان وثيق الصلة بالسعودية ويتلقى منها المعونة، وكان البنا يمسك بيد من حديد بميزانية الجماعة، ولذلك فإنّ الانشقاقات عن الإخوان ارتبطت باتهام الشيخ حسن البنا بالتلاعب المالي وإخفاء مصادر تمويل الجماعة عن الأعضاء الكبار في مجلس الإرشاد[1].

وعن طريق الدعم السعودي استطاع البنا، وهو المدرس الإلزامي البسيط، أن ينشئ خمسين ألف شعبة للإخوان في العمران المصري من الإسكندرية إلى أسوان، واستطاع إلى جانب ذلك أن ينشئ التنظيم الدولي للإخوان عن طريق الفضيل الورتلاني الجزائري المساعد الغامض لحسن البنا، وهو الذي فجر ثورة الميثاق في اليمن لقلب الموازين فيها لصالح السعودية، وقد نجحت الثورة في قتل الإمام يحيى، ولكن سرعان ما فشلت وتنصلت منها السعودية، ورفضت استقبال الفضيل الورتلاني بعد هربه من اليمن وظل الورتلاني في سفينة في البحر ترفض الموانئ العربية استقباله كراهية لدوره في اليمن، إلى أن استطاع بعض الإخوان تهريبه في أحد موانئ لبنان، وانتقل منها إلى تركيا، ثم ظهر بعد ذلك كالرجل الثاني في قائمة جبهة التحرير الجزائرية حين توقيع ميثاقها في القاهرة سنة (١٩٥٥م)، وكان بن بيلا في ذيل القائمة.

واكتشفت الحكومة المصرية بعد ما حدث في ثورة اليمن سنة (١٩٤٨م) خطورة حسن البنا وتنظيمه السري، وكيف استطاع حسن البنا إجراء ثورة في اليمن بالريموت كنترول.

ولذلك كان التخلص من حسن البنا سياسياً بكشف أسرار التنظيم وما

---

(١) جمال البنا: خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه: ٦٢، دار الفكر الإسلامي، د. محمد أبو الأسعاد: السعودية والإخوان المسلمون ٦٧: ٧٩.

جرى إبان ذلك من حوادث عنف متبادلة.

ومعروف بعدها موقف الإخوان من تعضيد الثورة والخلاف بينهم وبين عبد الناصر، وتحالف السادات مع الإخوان، وعودة التيار الديني السياسي للسيطرة على أجهزة الدولة في التعليم والثقافة والإعلام مع عصر الثورة النفطية، ثم خلافهم مع السادات، وقتلهم له، واستمرار سيطرتهم في عصر مبارك الذي آثر مطاردة الإرهاب المسلح مع التصالح مع الفكر السلفي الذي أصبح يقدم نفسه على أنه الإسلام"[1]...

إذاً لقد استعاض عبد العزيز آل سعود عن الإخوان البدو المشاكسين بإخوان آخرين مصريين يدينون له بالولاء ويعملون في نشر الأيديولوجية الوهابية في أكبر عمق عربي وإسلامي يلاصقه، وينتظر منهم أن ينشروا هذه الدعوة إلى آفاق أرحب في العالم العربي ـ وهذا ما حدث ـ وينتظر منهم أيضاً أن يحوّلوا دعوتهم الدينية إلى حركة سياسية في المستقبل ـ وهذا ما حدث ـ وربما ينجحون في الوصول إلى الحكم، وبذلك تعود الدولة الإسلامية الأولى ليحكمها آل سعود بدون الفتح العسكري الذي تمنعه الدول الكبرى.

ومع المنهج الوهابي انطلق إلى آفاق أرحب، حين ركز على مصر فانطلق به الإخوان المسلمون المصريون من خلال سيطرتهم على الأزهر ومناهجه الدينية إلى العالم العربي والإسلامي، وتحول التدين المصري من التصوف إلى الوهابية على مهل خلال النصف الثاني من القرن العشرين، خصوصاً بعد أن سقطت الأيديولوجية القومية والأيديولوجية اليسارية.

باختصار صدر عبد العزيز مشكلته في المنهج الأيديولوجي الوهابي

---

(1) د. أحمد صبحي منصور: التدين المصري والتدين النجدي: ٢٨-٢٦. منشور في (الإنسان والتطور: العدد ٦١/ابريل مايو ويونية/١٩٩٨.

إلى مصر في نفس الوقت الذي قام فيه بتحجيم دور الفقهاء السعوديين مع الانفتاح على الغرب.

وجاء البترول وعوائده الضخمة فانشغلت مملكته باستهلاك المنتجات الغربية التي لم تعد رجساً من عمل الشيطان، بينما تسلل الفكر الوهابي إلى مصر المنفتحة بطبيعتها على الغرب، فأصبح للفقهاء السعوديين مجال مصري وعربي أوسع يسمع لهم خارج المملكة، واستعاضوا به عما كان لهم من نفوذ سابق داخل المملكة، وظهر إثر ذلك التطرف والتعصب والتزمت الوهابي خارج السعودية منذ السبعينات من القرن العشرين، حين أخذ الإخوان الجدد (الإخوان المسلمون المصريون) يكررون ـ بعد نصف قرن ـ ما كان يفعله إخوان نجد من قبائل مطير وعتيبة والعجمان..

رحلة داخل عقل الإخوان المسلمين:

عن طريق مصر انتقلت الوهابية والنفوذ السعودي إلى شمال أفريقيا غرباً وإلى الشام واليمن والهند شرقاً، ولا ينبغي هنا نسيان دور الحج بطبيعة الحال، وعزّز من هذا الانتشار أنّ حجة الوهابيين قوية وحقيقية في الهجوم على عبادة الأنصاب والقبور، وأنّ منهجهم يعتمد أساساً على الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ، وأنه يقوم على عموميات لا يختلف عليها اثنان مثل صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان وإخلاص العقيدة لله تعالى.

وبانتقال الدعوة الوهابية إلى مصر وإجهاضها المشروع الإصلاحي التنويري لمحمد عبده فقد تمّ قطع خط الرجعة على الدعوة، بحيث كان عليها أن تسير في اتجاه واحد يمحو الاتجاه القديم للإصلاح والتنوير وبدلاً منه يقوم بتجميع المسلمين نحو هدف واحد هو الحكم الإسلامي - في الظاهر ـ والوهابي في الواقع.

وبدأ حسن البنا في رفع لواء التجميع لكل المسلمين من صوفية وسنيين وقال كلمته المشهورة: «هي رسالة سلفية وطرق سنية صوفية».

وإذا كان مستحيلاً الجمع بين عقائد السنة والصوفية فإن البنا خرج من هذا المأزق بتأجيل البحث في الخلافات على أساس تربية القيادات على المنهج السني الوهابي، وأثناء ذلك تظل الرايات مرفوعة عن شمولية الدعوة لكل الطوائف في اتجاه هدف واحد هو الحكم بطبيعة الحال.

ومن طبيعة الحركات الدينية السياسية التقية، وأهم وسائل التقية رفع الشعارات المقدسة، فكذلك فعلت الدعوة الدينية السياسية التي تمخضت عن قيام الدولة العباسية، إذ كان شعارها «الرضى من آل محمد».

وكذلك فعل ويفعل الإخوان حين يرفعون شعارات سياسية مقدسة مثل «القرآن دستورنا والرسول زعيمنا»، ومثل «تطبيق الشريعة»، ثم «الإسلام هو الحل»، وبعد هذه الشعارات التي لا خلاف عليها ليس لديهم اجتهاد فقهي يناسب العصر وليس لديهم منهج فكري للحكم أو برنامج سياسي لعلاج المشاكل السياسية والاجتماعية لأنهم طالما أجهضوا حركة الاجتهاد الفكري والإصلاح الديني في سبيل الوصول للحكم فلم يعد أمامهم إلا استرجاع الفقه التراثي ومحاولة إخضاع العصر لمقولاته، بينما ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح، أي الاجتهاد الفقهي لمقتضيات العصر بمثل ما اجتهد الفقهاء السابقون لعصرهم.

ولو كانت تلك الحركة الدينية السياسية مصرية في جذورها لأثمرت اجتهاداً فقهياً يناسب العصر حتى مع تركيزها على الثورة والهدف السياسي، فتلك هي الطبيعة المصرية التي ترغم بعض العناصر في الأزهر على الإتيان بجديد، مع كون الأزهر أعرق مدرسة في الجمود العقلي.

ولكن لأنّ جذور تلك الحركة ترجع إلى نجد فإنه ليس أمامها إلا اتباع

الفقه الحنبلي التيمي الذي لم يجد ابن عبد الوهاب غيره أقرب إلى منهجه وإلى طبيعته المتشددة. صحيح أنّ هناك بعض التعديلات بين السطور كالذي نراه لدى محمد الغزالي والقرضاوي والشعراوي، ولكن هذه التعديلات القشرية لا تصل إلى المنهج الفكري نفسه. والمنهج الفكري للدعوة السلفية وحركتها السياسية هو تحويل الفكر إلى دين عن طريق التأويل، وهذه هي أولى الملامح الفكرية للحركة السلفية بالإضافة إلى الملمح الآخر وهو الثورية العنيفة الدموية.

وبذلك يمكن أن نوجز ملامح تلك الحركة في كلمتين، إنها «حركة ثورية معصومة»، أو هكذا يعتقدون.

ونتوقف قليلاً مع التأويل الذي جعل الحركة معصومة وجعل إطارها الفكري ديناً يعاقب من يخرج عليه أو يناقشه بالقتل.

وهذا هو التراث الحنبلي الذي تحمله الدعوة الوهابية، ويضاف إليه تراث ابن تيمية الفقهي والحركي في الهجوم على خصومه من الصوفية والشيعة، مع أنهم كانوا في عهده أصحاب سطوة ونفوذ، خصوصاً الصوفية. ومع ذلك فإنّ عنف ابن تيمية تجلى في فتاويه التي تبيح قتل الزنديق بدون محاكمة، والزنديق ليس هو المرتد ولكنه المسلم الذي يؤمن بالله ورسوله والكتاب والسنة ولكنه يخالف المذهب السلفي في بعض آرائه.

وقد نقل هذه الآراء فقهاء الإخوان المسلمين المشهورون بالاعتدال مثل أبي بكر الجزائري في السعودية وسيد سابق في مصر[1].

وعليه فكل من أنكر أو ناقش مقولة سلفية أو شعاراً أساسياً للإخوان

---

[1] أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم ٥٣٧، سيد سابق: فقه السنة ٢، ٣٩١.

المسلمين مثل تطبيق الشريعة أو الشعار الغامض «المعلوم من الدين بالضرورة» فجزاؤه القتل بدون محاكمة وبدون استتابة عندهم.

والتفاصيل في كتابنا: (حد الردة: دراسة أصولية تاريخية)، وبالتالي فإن الحديث عن تداول السلطة إذا وصلوا للحكم ليس له محل من الإعراب.

إنّ نفي الآخر (المسلم غير الإخواني وغير الوهابي) يأتي ضمنياً في تسمية أنفسهم بالإخوان المسلمين، فمن عداهم وليس منهم لا يكون عندهم من المسلمين، وقد جعلوا أنفسهم (إسلاميين)، وتجاهلوا نسبتهم للوهابية، وبذلك فالمسلم المخالف لهم هو زنديق وليس إسلامياً.

والمشكلة أنّ العصر يوافقهم على كونهم (إسلاميين) فيظلم الإسلام ويظلم الحقيقة أيضاً.

ولو أنصف المعاصرون لوصفوهم بوصفهم الحقيقي وهو أنهم وهابيون، وأنهم ضد الإسلام في فكرهم وسلوكهم وفي خلط الدين بالسياسة، وفي استغلال الإسلام مطية لوصولهم للحكم، وفي تآمرهم ونفاقهم.

وحتى في عملهم السياسي فهم يمارسون أردأ أنواع السياسة التي لا تتورع عن التآمر على الخصم والحليف معاً، ويصل التآمر إلى القتل، وقد قتلوا كل من قدروا على قتله ممن تعاون معهم، وتآمروا على كل من أحسن إليهم. تآمر الإخوان على الدولة السعودية نفسها.

واستضافت السعودية الإخوان بعد أن انقلب عليهم عبد الناصر، فوفرت لهم المأوى والعمل داخل المملكة وخارجها شريطة ألا يمارسوا العمل السري داخل المملكة ـ طبقاً لسياسة عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية.

ولكن ما لبث الإخوان أن أقاموا لهم بدعوى التثقيف حركة معارضة قوية للسلطة السعودية من بين أبناء المملكة السعودية، وقد عبرت هذه الحركة عن نفسها بعد حرب الخليج، وقابلتها السلطات السعودية بالعنف فهرب بعض زعمائها للخارج ومنهم المسعري والفقيه، ومن رحم تلك المعارضة السعودية خرج أسامة بن لادن أكبر إرهابي في هذا العصر.

وضحايا الإخوان من السياسيين بدأ بأحمد ماهر والنقراشي، ولم ينته بالسادات وأحمد شاه مسعود والملك يحيى في اليمن.

ومؤامراتهم الفاشلة ضمّت كثيرين من الملوك والرؤساء، من حسني مبارك وأعمدة دولته، وحتى الأمير عبد الله (ملك السعودية الآن)، حيث تآمر على قتله الدكتور عبد الرحمن العمودي، واحد من أكبر عملاء السعودية في أمريكا، ولكنه في الخفاء تآمر على اغتيال عبد الله باتفاق مع معمر القذافي، ويقضي الآن العمودي عقوبة السجن مدى الحياة في أمريكا.

وهل ننسى الراحل فرج فودة الذي واجههم بالقلم فأسكتوه بالمدفع الرشاش؟؟!!

ضحايا الإخوان المسلمين من الأقباط والمصريين والسياح يصل إلى الآلاف.

صحيح أنّ من يقوم بالقتل هم من جماعات مختلفة من الجهاد إلى الجماعة الإسلامية وغيرها، إلا أنّه توزيع أدوار أرساه حسن البنا الذي جعل له جهازاً سرياً للاغتيال، وكان يسارع بالتبرؤ من الجناة إذا اكتشف أمرهم.

فالإخوان يمثّلون واجهة الاعتدال بينما يمثل الشباب الإرهابي العصا التي تخيف النظام وتحمي بطريق غير مباشر شيوخ الحركة من الاعتقال أو أن يغتالهم النظام.

وتلك الجماعات مع وجود اختلاف ظاهري بينها إلا أنه لا يصل إلى العقائد والأهداف، فقد خرجت تلك الجماعات من عباءة الإخوان، ونشأوا على تربيتها. والخلاف طبيعي داخل تلك النوعية من الحركات، وقد اختلف الإخوان النجديون مع سيدهم ومنشئ حركتهم عبد العزيز وحاربوه. وتلك الجماعات بشبابها وعملياتها الإرهابية تؤدي دوراً محسوباً بدقة في حركة الإخوان السياسية في اللعب مع النظام في الداخل والقوى السياسية الأخرى في الخارج.

لو جاءت الانتخابات بعرش السلطة للإخوان اليوم ما رضوا به. معنى وصولهم بالديمقراطية للحكم أنهم سيكونون عرضة للمساءلة الديمقراطية، وهذا يوقعهم في مأزق حاد لا يستطيعون معه إلا الفشل، فليسوا مؤهلين للحكم والمساءلة، وليست لديهم حلول للمشاكل، بل مجرد شعارات براقة دون مضمون واقعي أو خطة علمية عملية للإصلاح. بل هم ضد الإصلاح أساساً. لذا يركّز الإخوان على التربية لإعداد المجتمع للإيمان بالحاكمية التي تعني البيعة للحاكم بالسمع والطاعة المطلقة، حتى يحكم باسم الله تعالى دون أن يكون مسؤولاً أمام (الرعية) بل فقط أمام الله تعالى يوم القيامة. وهذه هي أسوأ أنواع الديكتاتورية.

يحتاج الإخوان إلى حوالي عشرة سنوات ليصلوا بالشعب المصري إلى هذه الحالة من الغيبوبة العقلية حتى يركع لهم طائعاً ليركبوا ظهره باسم الحاكمية.

عندها قل على الديمقراطية وحقوق الإنسان والأقباط.. ومصر.. السلام.

السؤال الأخير: إلى متى ننتظر؟

المفجع أنّ الزمن يعمل لصالحهم طالما نظل ساكتين متفرقين.

الفصل الثالث



الملاحق

الفصل الثالث

الملاحق[1]

الإخوان وأهل القرآن

(١) ـ الإخوان وأهل القرآن:

في البداية فإنّ تحديد الإخوان المسلمين في كل ما أكتب هو الثقافة وليس الأشخاص.

ليس بيني وبينهم كأشخاص أيّ مشكلة، المشكلة هي مع فكرهم الوهابي المناقض للإسلام والذي يستخدمونه للوصول للحكم، فيظلمون الله تعالى ورسوله ودينه قبل أن يظلموا المسلمين وغير المسلمين.

ليس ما أكتبه حكماً مسبقاً على النيات حين أقول أنّ حكم الإخوان المسلمين الآتي هو «أسفل السافلين» الذي سنترحم فيه على الحضيض، وهو حكم مبارك البوليسي الاستبدادي.

---

(١) مقالات منشورة للمؤلف عن الإخوان: في موقع أهل القرآن.

إنني أقرر هذه الحقيقة بناءً على التخصص العلمي في تاريخ الإخوان وعقلياتهم وانتمائهم الفكري والفقهي، وبناءً على ما عانيته منهم ومن أتباعهم منذ (١٩٧٧م) وحتى الآن.

إنها شهادة على العصر يؤكدها أشخاص لا يزال بعضهم على قيد الحياة، كما تؤكّدها وثائق وأحداث وقعت ولا تزال تقع.

اضطهاد مستمر ودعوات للقتل واستعداء للنظام ضدي وتلفيق للاتهامات وتأليف لأكاذيب وافتراءات تدمر السمعة الدينية والوطنية بالتكفير والتخوين والتحقير.

إنه الاغتيال المعنوي للشخصية الذي يمهدون به للتصفية الجسدية كما حدث مع صديقي الراحل فرج فودة.

الاغتيال المعنوي يأخذ طابع الاستمرارية والإلحاح على القارئ بالإصرار على تكرار الكذب وترديد نفس البهتان دون ملل أو خجل مهما تمّ الرد وظهر الحق، إلى أن يتم الاغتيال المادي. بعده لا يسكتون وإنما يستمرون في تشويه الضحية ولعنه وأكل لحمه ميتاً ليكون مستحقاً لما فعلوه به وليكون عبرة لغيره.

إذا خاف وتراجع في منتصف الطريق ـ كما حدث لبعض الأصدقاء ـ لم يغفروا له ولم يصفحوا عنه، بل تظلّ محاكمته قائمة لا يرفعها الندم ولا تخففها التوبة. فإذا كان الله تعالى يغفر فهم لا يغفرون، وإذا كان الله تعالى يصفح فهم لا يصفحون، وإذا كان جلّ وعلا قد وسعت رحمته كل شيء فإنّ ظلمهم قد شمل كل شيء، ظلموا رب العزة حين زعموا أنه اختارهم من دون العالمين ليحكموا الناس باسمه وليمثلوا دوره في التحكم في البشر، وظلموا البشر بالتعالي عليهم واعتبار أنفسهم المؤهلين وحدهم للتحكم في الناس، ومن عارضهم فمصيره القتل في الدنيا والجحيم في

الآخرة.

وهكذا فإنه إذا كان محمد ﷺ ـ خاتم النبيين ـ ليس له من الأمر شيء كما جاء في القرآن الكريم، فإنّ أولئك زعموا لأنفسهم كل شيء بالتحكم في الدنيا وفي الآخرة معاً.

هذه الثقافة الدينية الإجرامية هي التي تحول من يعتنقها إلى شيطان مريد مهما تخفى خلف كلام معسول وابتسامة ساحرة وعمامة ولحية. إنّ الشيطان يحلو له دائماً أن يتخفى خلف كثير من العمائم واللحى، فإذا اشتقت إليه فانظر إلى بعض ذوي العمائم واللحى وابتعد عنهم مستعيذاً بالله العزيز العليم من الشيطان الرجيم.

(٢) ـ أتذكر بكل أسى ما فعلوه مع الراحل فرج فودة.

أعاشوه في خطابات وتليفونات لا تنقطع من الشتائم والتهديدات فأرعبوا أولاده وأصابوا السيدة زوجته بمرض نفسي عاشت معظم وقتها في المستشفى من الهلع، واختطفوا ولده الثاني وكان في الرابعة عشر من عمره، وأطلقوا سراحه بعد ضرب مبرح، ولولا همة البحث البوليسي وخوف القبض عليهم ومعرفة المتورطين في الخطف والتعذيب لصبي بريء ما أطلقوا سراحه.

هذا هو الجانب الخفي الذي شهدته في صحبتي لفرج فودة، والذي أبت كرامته الشخصية الحديث عنه أو الشكوى منه.

يرتبط بذلك أزماته المالية المستمرة بعد أن حاربوه في رزقه - كمستشار اقتصادي ـ في الوقت الذي يؤلفون فيه الروايات المفتراة عن الملايين التي تصل إليه من الغرب. كان في سعة من الرزق قبل أن ينغمس

في العمل السياسي والفكري، كان له مكتب وسيارة وعملاء كثيرون لا ينقطع توافدهم على مكتبه.

فلما أصدر كتابه (قبل السقوط) بدأت ضده الحرب الضروس فهرب عملاؤه وأقفر مكتبه إلا من زوار الفكر والفقر من أمثالي، نجلس سوياً نحكي همومنا ونحلم بمستقبل أفضل لمصر.

رشح نفسه عن دائرة شبرا وفيها تجمع كبير من الأقباط، كان يحمل همومهم يريد أن يصل بها إلى مجلس الشعب، وكمسلم كان يريد أن يعبر عن كلّ المصريين جميعاً.

كان واضحاً تفوّقه واكتساحه الجميع بما فيهم مرشح الحزب الوطني. أسقطه الإخوان المسلمون بطريقتهم الشيطانية: قبل الانتخابات بيومين امتلأت شوارع شبرا عن آخرها بمنشور يزعم أنه يعرض لمؤلفات فرج فودة ويفتري أنه في كتابه كذا قال كذا في الطعن في القرآن، وفي سب النبي محمد ﷺ قال كذا، وفي الاستهزاء بالصحابة قال كذا.. الخ.

يذكر الكلام كأنه نصوص منقولة من كتب فرج فودة. فوجئ فرج بهذه الأكاذيب السامة التي لم تخطر على باله، تحرك بسرعة يعقد الندوات حاملاً كتبه يثبت أنه لم يذكر أيّ حرف من ذلك الإفك المنسوب إليه.

ولكن كان السهم قد نفذ، ولأننا شعب الثقافة السمعية فقد تناقل الجميع كل ما جاء به البيان كحقائق مؤكدة خصوصاً مع الهجوم المستمر عليه من خطباء المساجد الذين روّجوا لهذا الافتراء يتهمون فرج بالكفر وعداء الإسلام والطعن في الله تعالى ورسوله والعمالة للغرب، فرسب فرج في الانتخابات بتلك الحيلة التي تعبر عن «الافتراء» وهو أهم سلاح (شرعي) للإخوان.

مع أزماته المالية ـ التي كانت أحياناً تعوقه عن إصلاح سيارته المتهالكة ـ إلا أنه كان كريماً سخياً. مرت عليّ أوقات غاية في الفقر فكتبت مقالاً ساخراً بعنوان «فإنّ مع العسر يسرا» أمتدح فيها صديقي الدائم طبق الفول وأتحسر على زمن اللحم الذي ولّى ولم يعد.

كنت أنشر مقالاً أسبوعياً في (الأحرار) بفضل توسط فرج فودة وعلاقته بوحيد غازي رئيس تحرير (الأحرار) وقتها مقابل مائة جنيه كانت تشكل بنداً أساسياً في قوام معاشي. وقتها كان ينشر فيه الإخوان المسلمون وأعوانهم ـ ولا يزالون ـ أكاذيب ضخمة عن ملايين تأتي لي من أعداء الإسلام!!.

بعد نشر مقالي المشار إليه فوجئت بفرج فودة (يرحمه الله تعالى) يستدعيني على عجل من تليفون البقال ـ وكان أقرب تليفون لبيتي حيث لم يكن لديّ المقدرة وقتها على إدخال تليفون في بيتي ـ ويطلب مني أن ألقاه على عجل.

قابلته في مكتبه ألهث لمعرفة السبب في هذا الاستدعاء العاجل، طمأنني واصطحبني إلى مطعم كباب وأقسم بكل عظيم أن أقبل دعوته على الغذاء مع أنّ موعد الغذاء لم يكن قد حلّ بعد.

لم يتركني أتساءل عن السبب إذ شغلني بمشكلة فقهية أثناء الطعام زعم أنها تؤرقه وهي السبب في دعوتي.

استيقظت لنفسي بعدها وأنا في بيتي وقد عرفت السبب فجأة إذ كان يومها الاثنين وكانت (الأحرار) قد نشرت مقالي إياه بعد كتابته وإرساله بشهر سابق ونسيت أمره، فلما نشرته (الأحرار)، وقرأه فرج فودة بادر بهذا التصرف النبيل.

هو نفسه فرج فودة الذي دافع عني وأنا في سجن طرة دون معرفة سابقة

بيننا في مقاله: «أحمدك يا رب» المنشور في (الأهالي)، وكان موقفه النبيل مني أساس صداقتنا فيما بعده، ولقد حكى هذا في كتابه (نكون أو لا نكون)، وحكيت نفس الحادثة في نقابة الصحفيين في أول مناسبة لتأبينه بعد اغتياله. وأحكيها هنا أيضاً للتحذير من عصر أسفل السافلين القادم إن لم نتكاتف لإنقاذ مصرنا ومصيرنا ومصير أولادنا.

(٣) ـ منذ بداية الثمانينيات..

بدأ الفكر الوهابي يسيطر على جامعة الأزهر، بعد انحسار الوصاية الصوفية عنه. كان لي الفضل في مواجهة الفكر الصوفي وقهره خلال رسالتي للدكتوراة، وصراعي مع النفوذ الصوفي في الأزهر بسببها فيما بين (١٩٧٧م) إلى (١٩٨٠م)، ثم في كتبي اللاحقة (١٩٨٢/١٩٨٤م)، وكنت سنياً معتدلاً وقتها أطمح إلى إصلاح الفكر السني أسوة بما فعلته في التصوف.

واندلعت الحرب بيني وبين شيوخ الأزهر السنيين سنة (١٩٨٥م) حين أحالتني جامعة الأزهر للتحقيق بعد تأليفي خمسة كتب للترقية لأستاذ مساعد وقمت بتدريسها للطلبة، كان أهمها كتاب: (الأنبياء في القرآن الكريم).

لم تكن تهمة «إنكار السنة» قد جالت بخاطرهم بعد، لذا اتهموني بإنكار شفاعة النبي محمد ﷺ، وإنكار عصمته المطلقة وإنكار تفضيله على الأنبياء السابقين عليهم السلام.

وطلب مجلس التأديب الذي أحالوني إليه تقريراً عن كتبي من بعض الأساتذة ومن الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وقتها وكان الشيخ عبد الجليل شلبي.

جاء تقرير عبد الجليل شلبي أكثرها رفقاً بي إذ اختلف معي فكرياً إلا أنه أشاد بمشاعري الإسلامية واجتهادي، وشدّد على عدم الإضرار بي وبسمعتي ومعالجة الأمر بهدوء داخل الجامعة.

طبقاً لقراراتهم جلست في بيتي عامين محروماً من الترقية لأستاذ مساعد ومن السفر للخارج ومن العمل داخل الجامعة، بل صادروا معظم مستحقاتي المالية السابقة واللاحقة حتى أتراجع عن عقيدتي فلم أرضخ.

أحسّ بمشكلتي صديق فاضل يعمل رئيساً لقسم التاريخ وقتها في جامعة المنصورة، فجعل رئيس جامعة المنصورة يخاطب جامعة الأزهر للموافقة على نقلي إلى قسم التاريخ هناك حلاً للمشكلة، فأرسلوا إليه إنذاراً يأمره بالابتعاد عني، وعزّز الأمر بتأييد من مباحث أمن الدولة فاضطر عميد القسم ورئيس الجامعة في المنصورة للانسحاب خوفاً.

ولأنه كان هيناً في تقريره ضدي فقد عوقب الشيخ عبد الجليل شلبي بعدم التجديد له في مجمع البحوث بينما تمت ترقية الشيخ سيد طنطاوي رئيس اللجنة التي كانت تحاكمني فأصبح مفتي مصر لموقفه المتشدد معي، خلال العامين قدمت استقالتي فرفضوها فرفعت ضدهم دعوى لإرغامهم على قبول استقالتي فاضطروا إلى إصدار عزلي من الجامعة.

أعطوا الفرصة للشيخ عبد الجليل شلبي ليكفر عن خطئه فأسندوا له وظيفة جديدة هي كتابة العمود اليومي «قرآن وسنة» في (الجمهورية) بعد موت الشيخ محمد سعاد جلال، قام الشيخ عبد الجليل بالهجوم على شخصي يتهمني بكل ما يسيء لديني وشرفي وخلقي وعلمي.

نسي الشيخ ـ وكان وقتها يقترب من الثمانين من عمره ـ ما كان أوصى به زملاءه الشيوخ من عدم الإضرار بي ومعالجة الأمر بهدوء بعيداً عن الصحافة، فكان هو الذي استمر في الهجوم الصحفي عليّ بطريقة كانت لا

تخلو أحياناً من سفاهة، كأن يقول عني أنني اتهمت النبي محمداً ﷺ فقلت: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾[١]، ناسياً أنها آية قرآنية.

إلا أنه كان يلح دائماً على اتهامي بتلقي الملايين من الخارج لأخرب الإسلام، حتى يفلت من مناقشة آرائي القرآنية.

بعد تركي الجامعة في مارس (١٩٨٧م) خططوا للقبض عليّ وعلى إخواني القرآنيين بتهمة جديدة هي إنكار السنة، فتوالت مقالات الشيخ شلبي في عموده اليومي «قرآن وسنة» تتهمني بتلقي الملايين من الخارج في الوقت الذي كنت عاجزاً فيه عن شراء ملابس العيد لأولادي.

إن أنسَ لا أنسى أنني كنت يوماً بصحبة ابني الأكبر محمد نسير في شوارع العتبة وأسواقها التجارية. كان محمد قد ازداد طولاً ويرتدي الملابس القديمة التي تقاصرت عليه، وكانت آخر ملابس اشتريتها له منذ تركت الجامعة. طافت بي عواصف الأسى وتساءلت في نفسي: ما ذنب أولادي في الذي يجري لي؟ وهل عليهم دفع الثمن لمجرد أنهم أبنائي؟ وأين خصومي وافتراءاتهم لينظروا حالنا؟

أقول هذا الآن لأحمد الله سبحانه وتعالى وأنا أرى أولادي قرة عين لي ولعائلتي برجولتهم وثقافتهم بما تعلموه معي من الصبر على الشدائد!!

كنت قد خرجت من الجامعة محالاً على المعاش وأنا في الثامنة والثلاثين من عمري بعد عمل في جامعة الأزهر استمر خمسة عشر عاماً فقط استحققت عليه معاشاً شهرياً لم يبلغ في سنته الأولى (٨٦ جنيهاً) لا تكفي نفقة أسبوع، بينما ينعم الشيوخ الأفاضل حتى بعد السبعين من أعمارهم بمعاشات ومكافآت بكلّ العملات الصعبة والسهلة من الوظائف

---

[١] الضحى: ٧.

المختلفة في اللجان الشرعية في البنوك الإسلامية و الجمعيات المختلفة الحكومية والشعبية والرسمية وشبه الرسمية.

ليلة القبض عليّ كنت أكتب الجزء الثاني من موسوعة لم أتمّها كانت بعنوان «شريعة الله وشريعة البشر» أناقش فيها التناقض بين شريعة القرآن والفقه السني.

الجنود البواسل الذين قبضوا عليّ صادروا كلّ ما كتبته في تلك الموسوعة وما أعددته من مادة علمية كما صادروا حوالي ألف نسخة من آخر كتاب لي طبعته على حسابي وبمعونة أصدقائي، وهو (المسلم العاصي).

تركوني أصلى ركعتين وأودع زوجتي وأولادي وأترك معهم أربعين جنيهاً محتفظاً لنفسي بكل ما تبقى لديّ من مال وكان ثمانين جنيهاً، وخرجت معهم إلى المجهول.

في سجن طرة كنت أنظر في حسرة إلى الثمانين جنيهاً مؤنباً نفسي لماذا لم أتركهم لأولادى وهم وحدهم في تلك المحنة. لا أنسى أنني في موقف ضعف بيني وبين نفسي اجتاحني الغم والوساوس تأكلني حول حال أولادي وكيف يعيشون بالقليل الذي تركت معهم، وأتهم نفسي بالأنانية.

سمعت صوتاً يناديني وكان أحد المساجين يقرأ في (الجمهورية) يقول لي مبتسما أنّ الشيخ عبد الجليل شلبي يتحدث عنك هنا.

أعطاني (الجمهورية) لأقرأ فيها مقال الشيخ يتشفى في سجني ويتحدث عن الملايين التي تأتيني، وكيف أنها ما أغنت عني شيئاً.

لأول مرة في تجربة السجن تلك غلبتني دموعي من القهر ونظرت إلى السماء أطلب المزيد من الصبر. لم يكن أهلي قد عرفوا بعد أين أخذوني،

وطاف أهلي يبحثون عني في أقسام البوليس بينما تطاردهم الصحافة المصرية في شهامتها المعهودة تهاجمني وتفتري أكاذيب عني.

كانت الصحف القومية هي المسموح بها فقط في السجن دون صحف المعارضة.

وقد عشت أوقاتاً كئيبة وأنا أقرأ ما تكتبه الصحف القومية عني من افتراء وهجوم دون وازع من ضمير أو شرف أو محاولة لاستطلاع رأي الطرف الآخر المسجون الذي لا حول له ولا قوة.

في هذه الأثناء ظهر في (الأهالي) مقال فرج فودة «أحمدك يا رب»، وكان الوضع قد تحسن إذ عرف أهلي أنني في طرة، فجاؤوا في أول زيارة لي ومعهم ما لذّ وطاب من الطعام، تسلّمته عبر الأسلاك وسمعتهم يؤكدون على أهمية ورق الجرائد الذي يغلف أواني الطعام.

فتحت أوراق الجرائد فإذا بها (الأهالي)، وفيها مقال فرج فودة الذي يدافع عني بكلّ قوة ويهاجم مباحث أمن الدولة، وتلفيقها تلك التهمة لي قائلاً أنه يقتنع بنفس الفكر، وأنّ الإمام أبا حنيفة قد قال نفس ما قلته من قبل.

نزل مقال «أحمدك يا رب» على قلبي برداً وسلاماً، وأكّد لي أنّ في مصر رجالاً مهما تكاثر فيها الأشرار والخصيان والأنذال.

وطفقت أقارن بين فرج فودة وعبد الجليل شلبي. الأول كاتب علماني لا يعرفني ويندفع للدفاع عني وكل ما قرأه لي هو الاتهامات الواردة في (الأهرام)، وغيرها عن كتاباتي، وهي كلها دلائل اجتهاد علمي ولكن تحولت في الزمن الأغبر إلى جرائم تستحق السجن. الثاني شيخ جاوز الثمانين قرأ كتبي وعرفني، وقال شهادة حق، ثم تنكر لها وواصل الهجوم بالأكاذيب لمن لم يسبق له أن أساء إليه، بل حتى لم يترفق به بعد تركه

الجامعة أو حين وضعوه في السجن مظلوماً.

فارق هائل بين شهامة ونبل فرج فودة وموقف عبد الجليل شلبي الذي أترك تقييمه لحكم القارئ.

توالت مقالات الشيخ عبد الجليل شلبي تهاجمني بنفس الأكاذيب بعد الإفراج عني، لم يعد الهدف هو القبض عليّ بل دفع الإرهابيين لقتلي.

(٤) ـ حضيض النظام العسكري الاستبدادي كان أكثر رحمة بي منهم.

ليس في القانون المصري عقوبة على الاتهام المنسوب لي وهو «إنكار السنة»، ولو كانت دولة الإخوان المسلمين لكانت التهمة «حد الردة»، وعقوبتها القتل بدون محاكمة كما يرون في عقوبة «الزنديق» التي قال بها ابن تيمية في (رسائله)، وسيد سابق في كتابه (فقه السنة)، وأبو بكر الجزائري.

كل ما فعله الاستبداد العلماني المصري هو السجن لمواجهة ضغط سياسي هائل قادته السعودية وأعوانها من الشيوخ الأزهريين السنيين الوهابيين.

وبعدها بأكثر من عشر سنوات حين ازداد نفوذ الوهابية في مصر وازداد ضعف النظام في مصر وازداد حنقه على ما نفعله بالتعاون مع مركز ابن خلدون فقد قرر معاقبة القرآنيين بتهمة ازدراء الأديان، وبذلك حكم على بعض الرفاق القدامى بالسجن بضع سنين.

إحقاقاً للحق في شهادتي هذه لابد أن أذكر بعض الايجابيات لبعض ضباط ومسؤولي أمن الدولة دون ذكر أسماء.

لقد تعاملت معهم متهماً يستدعونه للتحقيق وللترويع منذ عام (١٩٨٦م) طبقاً لأوامر عليا من الوزير زكي بدر، ثم من جاء بعده.

ولا زلت أذكر غرفة النشاط الديني في لاظوغلي التي دخلتها عشرات المرات فيما بين (١٩٨٦م) إلى (١٩٩٧م)، ثم بعدها فرع أمن الدولة في المرج ودار السلام. خلال تلك السنين عايشت ضباطاً كباراً أنهوا خدمتهم، وضباطاً صغاراً كبروا أمام عيني مثل أطفالي، وترقوا من ملازم أول إلى مقدم، وكنت أسميهم بيني وبين نفسي ساخراً «الظباط بتوعي».

كانت مهمتهم التخفيف من غضب الشيوخ وضغوطهم المستمرة التي تلح على اعتقالي وسجني لتسهيل اغتيالي في السجن بعد أن صرت مشهوراً ومعروفاً ومطلوباً.

أفهمني أولئك الضباط أن استدعائي هي مجرد أوامر، وبهدف حمايتي.

قبل القبض عليّ بأيام قال لي رئيس النشاط الديني، وكانت أمامه مذكرة القبض عليّ كما عرفت فيما بعد:

«يا دكتور أحمد أنا لا أنام الليل من أجلك، لماذا لا تقعد في حالك ولا تخطب في المساجد».

قبلها طلب هو نفسه من الشيوخ عقد مناظرة بيننا في أيّ موضوع يختاره الشيوخ ولا يحضره سوى كبار ضباط أمن الدولة لأنهم مقتنعون بأنني مسلم حريص على دينه ولست كافراً كما يقول شيوخ الوهابية.

رفض الشيوخ بالطبع، قبلها وفي سنة (١٩٨٥م) طلب رئيس نادي جامعة الأزهر الدكتور عويضة عقد نفس المناظرة بيني وبينهم داخل الجامعة فرفضوا.

إنهم لا يجرؤون على مواجهتي في مناظرة، ولا يستريحون إلا بتغييبي في سجن أو في قبر.

هذه هي نظرة الشيوخ الإخوان لكل من يختلف معهم في الرأي.

فهل ستتسع صحراء مصر للقبور الجماعية التي سيقيمها الإخوان المسلمون لكل من يعترض عليهم؟

(٥) ـ في مواجهة الإخوان..

وغيرهم من المتطرفين الذين شوّهوا الإسلام العظيم سينطلق قريباً موقع (أهل القرآن) الذي سينقل للقراء كلّ مؤلفاتي ومنها (الصلاة بين القرآن والمسلمين).

وسيكون موقع (أهل القرآن) بعونه تعالى بيتاً في فضاء الانترنت لكل المسلمين المستنيرين.

(٦) ـ والحمد لله تعالى رب العالمين.

الملحق الثاني

يسألونك عن الإخوان المسلمين

مقدمة:

١ ـ كل المصريين يعرفون السيد البدوي، وإبراهيم الدسوقي، وأبو الحسن الشاذلي، وأبو العباس المرسي.. الخ، ومعظم المصريين يعتبرونهم أولياء مقدسين.

الذي لا يعرفه معظم المصريين أنّ السيد البدوي ورفاقه كانوا في الحقيقة زعماء لتنظيم سري لقلب نظام الحكم في مصر منذ سبعة قرون، وقد امتد هذا التنظيم من مكة إلى العراق والمغرب واتخذ قاعدته في مصر، واعتمد هذا التنظيم سياسة النفس الطويل في تربية الأتباع وإعداد القادة، وبعد قرن تقريباً كان البدوي، والرفاعي، والدسوقي، والشاذلي، والمرسي، هم قادة المرحلة الأخيرة من التنظيم، فلما فشلوا في قلب نظام الحكم بقوا حتى الآن في العقيدة المصرية كبار الأولياء الصوفية المقدسين حسبما كانوا يقدمون أنفسهم للناس.

الذي لا يعرفه معظم المصريين أنّ كلاً منهم كان له اسمه الحقيقي المختلف عن اسمه الحركي، وكانت لهم شفرة للاتصالات، وعندما فشلوا في إقامة دولتهم انتقموا من الدولة المملوكية القائمة بإحراق كل الكنائس المصرية ـ ما عدا الكنيسة المعلقة ـ في وقت واحد من الإسكندرية إلى القاهرة إلى أسوان، وبطريقة واحدة.

٢ ـ هذا ما أثبته في كتابي (السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة) الصادر سنة (١٩٨٢م)، وقد نبهت في خاتمة الكتاب على التشابه بين حركة الإخوان المسلمين وتلك الحركة التي قامت منذ سبعة قرون وفشلت سياسياً، ولكن لا تزال آثارها الدينية قائمة، ودعوت إلى إصلاح الفكر الديني للمسلمين ومناقشة التراث حتى لا يؤمن به الشباب وتسيل الدماء.

كالعادة لم يلتفت أحد لتحذيري وبعد عشر سنوات تقريباً من صدور الكتاب والضجة التي صاحبته دخلت مصر في مواجهة بين الإرهابيين والأمن لا تزال مستمرة.

أثناء حركة البدوي كان العالم الإسلامي يرزح تحت حكم عسكري ويواجه الاستعمار الصليبي، والمسيحيون ضحية الصراع الديني المسلم الصليبي. والعرب المسلمون يحلمون بدولة عربية إسلامية قوية بدلاً من الحكام المتفرقين.

هي نفس الظروف تقريباً التي نعيشها الآن والتي أدت إلى نشأة الإخوان المسلمين. حركة السيد البدوي اعتمدت على النفس الطويل في التربية والإعداد الثقافي والديني ونشر التنظيمات السرية والعلنية، وكذلك يفعل الإخوان المسلمون الآن.

هذا التشابه بين الإخوان وحركة البدوي يؤكد أنّ الإخوان ليسوا مجرد تنظيم سياسي بل هم ثقافة دينية يجري إعداد المجتمع على مهل للإيمان بها وللتضحية في سبيلها باسم الإسلام، وبها يتم تقسيم الوطن والعالم كله إلى معسكرين معسكر الإسلام ومعسكر الكفر لتتحول الحرب المحلية إلى حرب عالمية بدأنا نحس بها الآن بعد الحادي عشر من سبتمبر.

٣ ـ الكتابات عن الإخوان لا تغوص في الجذور التاريخية والأصولية. وهذا ما نحاول تقديمه في إيجاز في هذه المداخلة.

سأضع الموضوع على شكل سؤال وجواب ليكون أكثر تبسيطاً.

١) هل الإخوان المسلمون يمثلون الإسلام؟

بالقطع لا.

الإسلام دين، أي نظرية ومبادئ، وأوامر ونواهي تشمل العقائد والسلوكيات.

الإخوان المسلمون في عقائدهم وسلوكياتهم يتناقضون مع دين الإسلام.

أبسط تناقضهم مع الإسلام أنّ القرآن الكريم يؤكّد أنّ من يستغل الدين لمطامع دنيوية فهو عدو لله تعالى. أي أنهم أعداء الله حين يستخدمون الإسلام مطية للوصول للحكم.

٢) هل الإخوان المسلمون يمثلون المسلمين؟

بالقطع لا.

المسلمون الآن ثلاث طوائف كبرى: سنة وشيعة وصوفية.

بالإضافة إلى طوائف صغرى كثيرة كالقرآنيين والأباضية والبهائية والمعتزلة.

ينتمي الإخوان المسلمون إلى طائفة السنة، وهي أكثر المسلمين تعصباً.

٣) هل يمثل الإخوان المسلمون كل الطائفة السنية؟

بالقطع لا.

السنيون أربعة مذاهب مشهورة: الأحناف، المالكية، الشافعية، ثم الحنابلة.

الحنابلة هم أشدّ المذاهب السنية تعصباً. ينتمي الإخوان المسلمون إلى المذهب الحنبلي.

٤) هل يمثل الإخوان المسلمون كل الحنابلة السنيين؟

لا.

الحنابلة مدارس متنوعة. أكثرهم تشدداً مدرسة ابن تيمية. وينتمي الإخوان إلى مدرسة ابن تيمية.

٥) هل يمثل الإخوان المسلمون مدرسة ابن تيمية؟

لا.

مدرسة ابن تيمية فيها تيارات مختلفة، وأشدّها تعصباً الوهابية.

والدولة السعودية الراهنة التي أنشأها عبد العزيز آل سعود هي التي أنشأت تنظيم الإخوان المسلمين في مصر على يد الشيخ رشيد رضا وصديقه الشيخ محب الدين الخطيب، وتلميذهما المصري الشاب حسن البنا سنة (١٩٢٨م).

٦) إذن الإخوان ينتمون إلى الوهابية وهي أقلية دينية، فلماذا اكتسبوا كل ذلك النفوذ؟

بسبب الدولة السعودية التي أنشأت حركة الإخوان المسلمين، وبتعاونهما معاً في ظل ظروف إقليمية ودولية مواتية اقتنع العالم بأنهم الممثلون للإسلام مع التناقض بين ثقافتهم الدينية وبين الإسلام.

٧) كيف أنشأ السعوديون الوهابيون حركة الإخوان المسلمين؟

عبد العزيز آل سعود هو المنشئ للدولة السعودية الثالثة الراهنة فيما بين (١٩٠٢_١٩٣٢م) بعد استيلائه على الرياض سنة (١٩٠٢م) قام بتجميع شباب البدو وتعليمهم الوهابية وتلقينهم أنّ الجهاد هو تكفير الآخرين وغزوهم واستحلال دمائهم وأموالهم ونسائهم واحتلال أرضهم، وأنّ كل من ليس وهابياً من المسلمين فهو مشرك، وكل يهودي ونصراني فهو كافر، ولا بد من جهاد الجميع.

هؤلاء البدو الوهابيون اشتهروا باسم «الإخوان»، وكان اسمهم يرعب الجميع في الجزيرة العربية والشام والعراق بسبب المذابح التي اعتادوا ارتكابها.

وبهم استطاع عبد العزيز توسيع ملكه فضم معظم الجزيرة العربية وهزم اليمن وخرب جنوب العراق والأردن واستولى على الحجاز سنة (١٩٢٦م).

أراد الإخوان السعوديون الوهابيون بقيادة زعمائهم فيصل الدويش وابن بجاد وابن حيثلين استمرار غزو العراق، ولكن بريطانيا حذرت عبد العزيز وهددته إن لم يكف الإخوان عن الهجوم على العراق، وبنى البريطانيون حصوناً على الحدود لتحمي العراق من هجمات الإخوان. اعتبر الإخوان بناء تلك الحصون الدفاعية في الأراضي العراقية مانعاً لهم من استمرار الجهاد، وطالبوا عبد العزيز بالتحرك معهم ضدها فرفض خوفاً من البريطانيين، فاتهمه الإخوان بموالاة الكفار «الانجليز».

كان عبد العزيز قد ضم إليه الحجاز بسيوف الإخوان ومذابحهم، وسيطر على موسم الحج والحجاج، فانتهزها فرصة لتكوين تنظيمات إخوانية خارج الجزيرة العربية عوضاً عن الإخوان البدو المشاغبين، ولينشر الوهابية في بلاد المسلمين مع التركيز على مصر والهند.

وعن طريقه تحولت الجمعية الشرعية في مصر إلى الوهابية بدلاً عن التصوف، وأنشئت حركة الشبان المسلمين كتنظيم شبه عسكري نبغ فيه حسن البنا، ثم جماعة أنصار السنة وهي حركة وهابية خالصة يقودها الشيخ الأزهري حامد الفقي صديق عبد العزيز آل سعود.

وفي النهاية أنشئت حركة الإخوان المسلمين بديلاً عن إخوان عبد العزيز وتحمل اسمهم. وكان هدفها المعلن هو التربية الإسلامية، وهدفها المستتر هو الوصول للحكم لإقامة دولة وهابية. إقامة تلك الجمعيات الوهابية في مصر قام بها اثنان من الشوام هما رشيد رضا ومحب الدين الخطيب.

٨) هذا عن الإخوان المسلمين في مصر، فماذا حدث للإخوان البدو

الوهابيين في الجزيرة العربية مع عبد العزيز؟

ثاروا عليه وحاربوه وانتصر عليهم في معركة السبلة سنة (١٩٢٩م)، وبعدها وفي سنة (١٩٣٢م) أعطى دولته الجديدة اسم أسرته فأصبحت تسمى المملكة العربية السعودية.

٩) كيف سارت العلاقات بين الإخوان المسلمين والسعودية؟

عن طريق الدعم السعودي استطاع البنا، وهو المدرس الإلزامي البسيط، أن ينشئ خمسين ألف شعبة للإخوان في العمران المصري من الإسكندرية إلى أسوان، واستطاع إنشاء الجهاز السري العسكري إلى جانب التنظيم الدولي للإخوان، وكان من أعمدته الفضيل الورتلاني الجزائري المساعد الغامض لحسن البنا، وهو الذي فجر ثورة الميثاق في اليمن لقلب الموازين فيها لصالح السعودية، وقد نجحت الثورة في قتل الإمام يحيى، ولكن سرعان ما فشلت وتنصلت منها السعودية، ورفضت استقبال الورتلاني بعد هربه من اليمن وظل الورتلاني في سفينة في البحر مع الذهب الذي سرقه من اليمن ترفض الموانئ العربية استقباله كراهية لدوره في اليمن، إلى أن استطاع بعض الإخوان المسلمين تهريبه في أحد موانئ لبنان، وانتقل منها إلى تركيا، ثم ظهر بعد ذلك كالرجل الثاني في قائمة جبهة التحرير الجزائرية حين توقيع ميثاقها في القاهرة سنة (١٩٥٥م)، وكان بن بيلا في ذيل القائمة.

واكتشفت الحكومة المصرية ـ بعد ما حدث في ثورة اليمن سنة (١٩٤٨م) ـ خطورة حسن البنا وتنظيمه السري والدولي، وكيف استطاع حسن البنا إجراء ثورة في اليمن بالريموت كنترول. وبالصدفة وقعت في أيديهم الوثائق السرية للإخوان المسلمين فيما يعرف بقضية العربة الجيب التي أظهرت الجانب الإرهابي السري للإخوان مما سهل القضاء على حسن البنا سياسياً وجسدياً سنة (١٩٤٨م).

ومعروف بعدها موقف الإخوان من تعضيد الثورة والخلاف بينهم وبين عبد الناصر، وهروب معظمهم إلى السعودية وخدمتهم للوهابية ونشرها في العالم الإسلامي.

ثم تحالف السادات مع الإخوان، فعادوا للسيطرة على أجهزة الدولة المصرية في التعليم والثقافة والحياة الدينية والأزهر والمساجد والإعلام تعززهم ثورة السعودية النفطية وسيطرتها الإعلامية والتليفزيونية، وأفرزوا تنظيمات مختلفة على نسق التنظيم العسكري في عهد حسن البنا كان أهمها الجهاد والجماعة الإسلامية.

ثم اختلفوا مع السادات، وقتلوه، واستمرت سيطرتهم في عصر مبارك الذي آثر مطاردة الإرهاب المسلح مع تدعيم النفوذ السعودي والفكر الإخواني الوهابي وتقديمه على أنه الإسلام.

١٠) ماذا قدم الإخوان للوهابية والسعودية؟

عن طريق الإخوان المسلمين المصريين انتقلت الوهابية والنفوذ السعودي إلى شمال أفريقيا غرباً وإلى الشام شرقاً، والى الجاليات الإسلامية في الغرب وأمريكا. كما استطاع الإخوان تقديم الفكر الوهابي للمثقفين المسلمين والطبقة الوسطى في أسلوب عصري مفهوم يختلف عن أسلوب محمد بن عبد الوهاب الفقهي الأصولي الجاف. ثم صاغوا الوهابية في شعارات سياسية مقبولة لجماهير المسلمين مثل «الإسلام هو الحل»، و«تطبيق الشريعة»، دون الدخول في تفصيلات.

أهم من ذلك كله أنّ الإخوان المسلمين أجهضوا المشروع الإصلاحي التنويري للشيخ محمد عبده لصالح الهدف السياسي وهو الحكم الإسلامي ـ في الظاهر ـ والوهابي في الواقع.

وبذلك استطاعوا تغيير المناخ لصالحهم فأصبح أكثر تطرفاً وتعصباً ضد الغرب والمسيحيين واليهود والمرأة. الدليل على ذلك أنّ ما كان محمد

عبده يقوله منذ قرن من الزمان في دعوته الإصلاحية أصبح هرطقة وكفراً في عصرنا الحالي يستوجب القتل.

١١) ما الذي سبب الوقيعة بين الإخوان والدولة السعودية مع اتفاقهما في العقيدة الوهابية؟

منذ البداية رفض عبد العزيز منشئ الدولة السعودية الراهنة ومنشئ الإخوان المسلمين أن تعمل حركة الإخوان داخل بلاده محدداً عملها في الخارج فقط.

ولكن أدّى تطور الأحداث إلى هروب معظم الإخوان إلى السعودية هرباً من اضطهاد عبد الناصر يحملون معهم تربيتهم السياسية القائمة على النفاق وسياسة الوجهين والتقية. تلك هي خلفيتهم الثقافية التي أرساها حسن البنا طبقاً لظروف الإخوان في مصر والمخالفة للطبيعة البدوية في الجزيرة العربية والتي ظهرت فيها الدولة السعودية.

ومن الاختلاف حدث الاحتكاك وأدّى إلى نمو المعارضة الوهابية داخل المملكة وضد الأسرة السعودية. الإخوان بفكرهم المتطور ساعدوا في ولادة المعارضة السعودية، فأخذ النظام السعودي وشيوخه الرسميون يهاجمون سيد قطب وجماعته والإخوان، بينما تمتدحهم المعارضة الأصولية الوهابية.

١١) ما هي نقطة الخلاف بين الإخوان والسعوديين؟

ظروف نشأة الدعوة الوهابية والدولة السعودية تختلف عن ظروف نشأة الإخوان المسلمين تبعاً لاختلاف مصر عن نجد. الإخوان النجديون الصحراويون لهم وجه واحد يتميز بالصراحة والجرأة واستباحة الدم علناً.

وهذا ما كان مستحيلاً على حسن البنا الجهر به، لذا اتبع سياسة المداهنة وادعاء الاعتدال.

وعندما ظهر حسن البنا في مصر بدعوته كانت أغلبية المسلمين

المصريين بزعامة الأزهر صوفية يمقتون الوهابية. تسلل حسن البنا إلى المجتمع المصري المسلم المتدين بفكرة تجميع المسلمين حول هدف واحد هو الحكم الإسلامي مع نبذ الخلافات المذهبية وتأجيلها، وعاونه في فكرته سقوط الخلافة العثمانية وحنين المسلمين إلى استعادتها في ثوب عربي أصيل.

واستغل الليبرالية المصرية وافتقارها إلى العدل الاجتماعي بأن تسلل للشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى وأوساط الأفندية المتعلمين الحالمين بالعدل والساخطين على التفاوت الطبقي فاجتذبهم إلى فكرة الحل الإسلامي بديلاً عن العلمانية الشيوعية والغربية.

وكان يتحدث لكل فريق باللغة التي يؤثرها متبعاً طريق التقية الشيعية، وكان يرفع لواء التسامح والاعتدال محتفظاً في نفس الوقت بتنظيمه السري المسلح ليتخلص من خصومه فإذا افتضح أمر بعضهم تبرأ منهم على الملأ قائلاً: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

هذا ما تربّى عليه الإخوان على يد حسن البنا طيلة عشرين عاماً (١٩٢٨ـ١٩٤٨م).

وبهذا الفكر تسللوا إلى الأحزاب السياسية المعلنة والتنظيمات الشيوعية السرية وخلايا الضباط الأحرار الذين قاموا بانقلاب (١٩٥٢م). وكان لا بد أن يحدث الاصطدام بينهم وبين عبد الناصر وهو الأعرف بهم حيث كان منهم يمارس نفس اللعبة.

تغدّى بهم عبد الناصر قبل أن يتعشوا به، فهاجر معظمهم للسعودية التي كانت تواجه عبد الناصر ومشروعه القومي اليساري.

وفي السعودية عملوا في خدمة الوهابية فاكتشفوا تسلط الأسرة السعودية وعنصريتها وفسادها. العادة في الدولة الدينية أنّ الحاكم يستمد سلطته السياسية من الفقيه.

وهذا ما حدث في الاتفاق المشهور بين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب. ابن عبد الوهاب الفقيه أعطى الشرعية الدينية لابن سعود أمير الدرعية ليغزو ويحتل ويحكم باسم الشرع.

وبذلك أصبحت الوهابية هي مصدر الشرعية للسلطة السياسية للأسرة السعودية. وصارت أسرة الشيخ «ابن عبد الوهاب» تسير في ركاب الأسرة السعودية الحاكمة.

الإخوان الوهابيون الذين ثاروا على سيدهم عبد العزيز قالوا أنّ مصدر السلطة هو الوهابية وليس الأسرة السعودية، لكنهم كانوا مجرد جنود غير مؤهلين للجدل الفقهي في مواجهة فقهاء عبد العزيز.

وعبد العزيز في خلافه مع الإخوان الثائرين عليه حسم الموضوع بأنّ شرعيته في الحكم ليست مستمدة من الوهابية ولكن من حقه في استرداد ملك أسلافه الذين أقاموا الدولة السعودية الأولى والثانية.

وعبد العزيز بهذا أعلى أسرته السعودية على الدعوة الوهابية نفسها، ثم أعطى الدولة اسم أسرته. وبرز هذا الاستعلاء الملكي السعودي أكثر بعد موت عبد العزيز ودخول مملكته عصر النفط وزعامة أسرته للعالم الإسلامي وتحالفها مع أمريكا.

وتجلى هذا الاستعلاء في تعامل الدولة السعودية مع العرب الوافدين ومنهم الإخوان المسلمون، مما أعاد التفكير في الفجوة بين الحكم السعودي ومبادئ الوهابية التي ينبغي على الأسرة السعودية الانصياع لها.

ولم يكن الإخوان المسلمون وحدهم الذين يشعرون بالدونية داخل المملكة السعودية، شعر بها أيضاً المتعلمون من أبناء المملكة الذين تخرجوا في جامعات الغرب ففوجئوا عند التوظيف أنهم ليسوا من أهل الثقة مهما كان نبوغهم لأنّ الدرجات العليا مقصورة على الأسرة السعودية وتحالفاتها القبلية. تقارب الساخطون من الإخوان المسلمين ومن الشباب

السعودي المثقف المتدين بالوهابية، ونشأ جيل جديد من الوهابيين السعوديين متأثر بسيد قطب وآرائه الحادة أكثر من تأثره بالفقهاء الرسميين في النظام السعودي.

هذا الجيل السعودي الوهابي أخذ التقية عن الإخوان المسلمين وتحرك في هدوء تحت السطح، ومع تراكم الفساد والانحلال في الأسرة السعودية وتحالفها مع أمريكا أثمر الطرح الإخواني تطوراً في العقلية الوهابية لدى هذا الجيل فأخذ يهمهم بتكفير الحكام السعوديين طبقاً للتكفير العام الذي نادى به سيد قطب.

وجاءت الفرصة لهم بالجهر بالمعارضة بعد احتلال صدام للكويت وصرخة الأسرة السعودية تستنجد بأمريكا لتنقذها من غزو صدام لتؤكد عدم أهليتها للحكم بعد عجزها عن حماية الشعب بعد كل ما أنفقته من بلايين في شراء السلاح بالملايين.

وتولدت المعارضة السعودية من رحم حرب الخليج متأثرة بالانفتاح على الإخوان.

وهوجم الإخوان من شيوخ الوهابية الرسميين السعوديين، إلا أنّ هؤلاء الشيوخ أنفسهم تعلموا النفاق والتظاهر بالاعتدال في مدرسة الإخوان. يقابلون الغرب بالحديث عن سماحة الإسلام والتبرؤ من ابن لادن ثم يتحدثون عن استمرارية الجهاد بالمفهوم الوهابي.

١٢) هل يؤثر هذا الخلاف على العلاقة بين السعوديين والإخوان؟

لم يؤثّر في الثقافة المتفق عليها بينهما وهي الوهابية. هما يعملان معاً في نشر وتعميم الوهابية كممثل للإسلام.. يقدم الإخوان الفكر والخبرة البشرية ويقدم السعوديون النفوذ السياسي والإمكانات غير المحدودة في السيطرة على القنوات الفضائية والصحف ودور النشر والإنتاج الدرامي والثقافي والمساجد والمعاهد ومراكز البحوث والدعوة والتنظيمات العلنية

والسرية والرسمية داخل وخارج العالم الإسلامي.

وبجهدهما معاً تم تغيير المناخ في معظم بلاد المسلمين ليكون أكثر ميلاً للعنف والتعصب وكراهية الغرب وغير المسلم ورفض الإصلاح الديني للمسلمين من داخل الإسلام ورفض الديمقراطية.

١٣) ما هي الاستراتيجية السياسية للإخوان؟

تتلخص في كلمة واحدة هي التربية الثقافية الدينية للفرد والمجتمع وصولاً إلى إخضاعه للسمع والطاعة بدون مناقشة لولي الأمر وفق مبدأ الحاكمية الذي يؤمنون به كعقيدة دينية وسياسية.

لو قيل للإخوان الآن: تعالوا احكموا لرفضوا الحكم، لأنه سيكون امتحاناً يعرفون مقدماً أنهم سيخسرون فيه. في موقع الحكم سيكونون في متناول النقد والمعارضة ومطالبون بتنفيذ الوعود السياسية في كيف يكون «الإسلام هو الحل»، وكيف يتم «تطبيق الشريعة». هم ليسوا مؤهلين للحكم الديمقراطي إذ لا يعرفون إلا الحاكمية التي تعني أن يكون الحاكم مسؤولاً فقط أمام الله تعالى يوم القيامة باعتباره الراعي والشعب هو الرعية أو الأغنام.

١٤) ولكن بعض الحركات الإسلامية السياسية وصلت للحكم وتركته وفق تبادل السلطة وقواعد الديمقراطية..

لماذا لا يكون الإخوان كذلك خصوصاً وهم يعلنون رضاهم بالديمقراطية؟

الحركات السياسية الإسلامية التي تقبل الديمقراطية وتتعامل معها إيجابياً تنتمي إلى التدين الصوفي المنتشر في بلادها من تركيا إلى ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة وبنجلاديش.

قلنا: إنّ المسلمين طوائف ثلاث كبرى سنة وشيعة وصوفية.

السنة أكثرهم تشدداً والوهابية هم الأكثر من السنيين تشدداً. الصوفية

المسلمون أكثر مسالمة وأكثر اعترافاً بالتعددية، بل إنّ التصوف يقوم على أساس التفرق إلى طرق صوفية تتفرع وتتفرع إلى طرق أكثر وأكثر. ولهذا فالديمقراطية واردة في تدين التصوف الذي يعترف بالتعددية ويتسامح مع المختلف في الدين.

١٥) ولكن الإخوان المسلمين يشجبون الإرهاب ويعلنون تمسكهم بالديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقباط وحرية الرأي والمعتقد وحقوق المرأة.

هي نفس سياسة النفاق التي كان يخدع حسن البنا بها المصريين في عهده.

١٦) كيف نتأكد أنهم مخادعون؟ أو كيف نكشف توجهاتهم الحقيقية؟

بأن لا نكتفي بالسؤال، أي نحوّل السؤال إلى استجواب ونقاش علني أمام أعين الناس في الإعلام والتعليم والمساجد والمقاهي والنوادي والشوارع وعلى المصاطب، وحتى حفلات الزفاف ومناسبات العزاء.

يقولون إنهم يؤمنون بحرية المعتقد.. فماذا لو ارتد مسلم عن دينه وأصبح مسيحياً أو يهودياً؟

هل يطبقون عليه حد الردة قتلاً، وحينئذ لا يخالفون الإسلام فقط بل يخالفون مبدأ حرية الفكر والعقيدة؟

أم يقررون فعلاً حرية كل إنسان في اختيار ما يشاء من دين والخروج عما يشاء من دين وحريته حتى في الكفر والإلحاد وفقاً لأكثر من خمسمائة آية قرآنية؟

وإذا وقفوا مع حقائق الإسلام وحرية المعتقد فعليهم حينئذ إعلان كفرهم بالسنة والفقه السني لتأكيدهما على قتل المرتد.

يقولون بأنهم ضد الإرهاب. وتعريف الإرهاب هو قتل المدنيين المسالمين، أو الاعتداء على من لم يقم بالاعتداء علينا. هذا جميل.. ولكن

ماذا يقولون في الفتوحات العربية التي حملت اسم الإسلام زوراً واعتدت على أمم لم تهاجم المسلمين؟

وماذا يقولون في الصحابة الذين ارتكبوا هذا الإثم الفظيع المخالف لشرع الله تعالى في القرآن؟

وماذا يقولون في الحديث الضال القائل «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله».. الخ؟ وهو الحديث المخالف لتشريع القرآن الكريم؟

وماذا يقولون في البخاري الذي رواه؟

وماذا يقولون في الأعمال الإرهابية التي ارتكبها الإخوان ومنظماتهم السرية والعلنية في الماضي؟

أليس الأجدر بهم الاعتذار عنها والإعلان بعدم العودة لها والتبرؤ ممن يرتكبها؟

يقولون إنهم يؤمنون بالمساواة والعدل وحقوق المواطنة بلا تفرقة على أساس الدين والمذهب والمعتقد. فماذا يقولون عن معاملة أهل الذمة في تاريخ المسلمين وتراثهم، وماذا يقولون عن الأحاديث التي تدعو لتحقير أهل الكتاب وازدرائهم؟

وماذا يقولون عن التفسيرات المذهبية التي تسيء فهم معاني القرآن الكريم في هذا الإطار؟

أليس من الواجب عليهم إعلان التبرؤ من هذا الفقه السلفي وتجريمه وإعلان عدائه لحقوق الإنسان وحقائق الإسلام؟ ثم تصريحات مرشدهم الأسبق مصطفى مشهور عن منع المسيحيين من التجنيد وتطبيق أحكام أهل الذمة عليهم... ماذا يفعلون بها؟

ألا يجب عليهم التبرؤ منها ودحضها والاعتذار عنها؟

وماذا يقولون في ولاية غير المسلم؟ يعني تولية مسيحي أو يهودي

رئاسة الدولة؟ الفقه السلفي يمنع ذلك ولكن تجيزه الديمقراطيات الحديثة التي يعلن الإخوان توافقهم معها؟ إذا وافقوا الفقه تناقضوا مع الإسلام والديمقراطية، وإذا وافقوا الديمقراطية والإسلام فعليهم التبرؤ من الفقه السلفي وأحاديثه الكاذبة المتعصبة.

يقولون بحق المرأة، فكيف يفعلون بالفقه السلفي الذي ينتمون له وهو ينتهك حقوق المرأة ويجعل النساء ناقصات عقل ودين ومادة للتشاؤم والتطير؟

وماذا يفعلون مع النص القرآني القائل ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾[1]، وما قاله الفقه السلفي في شرح وتقعيد ضرب الزوجة؟

وهل يقولون بولاية المرأة للقضاء والرئاسة للدولة كما يقول بعض المستنيرين من الفقهاء؟ وإذا أيدوهم فلا بد من التبرؤ من أعيان الأئمة المتعصبين من الحنابلة..

ماذا يقولون في تطبيق حد السرقة وحد الحرابة؟

ماذا يقولون في عقوبة الإعدام خارج القصاص في القتل مثل حد الرجم الذي ينفذ في السعودية وإيران وقتل الشواذ (وهذا ما حكمت به إيران وتخشى السعودية تطبيقه خوفاً من قتل معظم السكان)، وقتل تارك الصلاة طبقاً للفقه السني، وعقوبة شرب الخمر؟

وماذا يقولون في قتل المخالف للسلطان وحق الراعي في قتل من يشاء من الرعية.. إلى آخر تلك المنكرات المخالفة للقرآن والإسلام؟

إذا أعلنوا تبرؤهم من كل هذا التراث وأحاديثه والسنة التي تدعمه وتلصقه زوراً بالإسلام فعليهم أيضاً التبرؤ مما كتبه شيخهم سيد سابق في كتابه المشهور (فقه السنة)، وهو الكتاب الذي كتب مقدمته حسن البنا، وهو التشريع الحقيقي للإخوان وهو الذي يجيز قتل الزنديق، والزنديق

---

[1] النساء: ٣٤.

عندهم هو المسلم السني العارف بدينه ولكن يخالف الحنابلة في آرائهم.

يقولون بوجوب قتله دون محاكمة أو استجواب أو نقاش، يقتلونه حال العثور عليه.

هذا ما قاله ابن تيمية، وسيد سابق، والشيخ أبو بكر الجزائري، والمكتوب في مناهج الأزهر أضلّ سبيلاً.

فإذا كان الإخوان مخلصين في توجههم الديمقراطي - أي في تمسكهم بحقائق الإسلام - فلا بد من التبرؤ من كل تلك المؤسسات وأولئك الأئمة وكلّ ذلك التراث الحنبلي السني وكل من طبقه ودعا إليه.

ولا بد لهم بالتالي من الاحتكام للقرآن الكريم وإعادة قراءته من جديد قراءة عصرية موضوعية. إذا فعلوا ذلك - وهم لن يفعلوه - فسيكتشفون أن الأولوية ليست للوصول للحكم ولكن لإصلاح المسلمين بالإسلام.

سيرفضون بالقطع ليس فقط لأنهم طلاب سلطة وليسوا طلاب إصلاح، وليس فقط لأنهم لا علم لهم بالإسلام وتاريخ المسلمين وطوائفهم ومعتقداتهم الواقعية وتراثهم واختلافه عن الإسلام. سيرفضون لكل تلك الأسباب ولسبب آخر أهم هو أنهم لن يرضوا مطلقاً أن يكونوا تابعين للقرآنيين وشيخهم كاتب هذا المقال.

أرجو أن يوافقوا على التوبة وتغيير جلدهم والوقوف بحسم مع الديمقراطية وثقافتها الإسلامية ومواثيقها الدولية. حينئذ سأكون معهم في نفس الطريق ومعنا كل مسلم حريص على دينه.

عندها سيقدم الإخوان أكبر خدمة للإسلام حين يستخدمون قدرتهم التنظيمية ونفوذهم في إصلاح المسلمين بالإسلام ليس رغبة في حطام الدنيا والتحكم السياسي ولكن ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعلاء لشرعه ودينه بالدعوة السلمية التي تعلي من شأن الإنسان وحقوقه حتى لو اختلف معك في المعتقد.

على أنّ الإخلاص هنا يعني التفرغ لتغيير المناخ إلى الأفضل وهذا يستلزم عملاً مضنياً مستمراً في التنوير والتوضيح والتثقيف للخلاص من الثقافة المتعصبة التي أرساها الإخوان أنفسهم منذ أكثر من نصف قرن.

الواقع يقول أنهم على مكانتهم يعملون. ينشرون فكرهم متمسحين بالإسلام، ويعملون على تربية الشباب على أساسه بأناة وتؤدة، وينتظرون الثمار على مهل.

١٧) ولكن تغيير المناخ كلية وفق ما يشتهيه الإخوان يستلزم وقتاً طويلاً.

ولكنه هو الخيار الأكثر ضماناً، ثم هو نفس السياسة القديمة للحركات السياسية الدينية في العصور الوسطى، سياسة النفس الطويل وتغيير المناخ على مهل أو بتعبيرهم تربية الفرد ثم تربية المجتمع، فإذا وصل الفرد والمجتمع إلى اعتناق الفكر الوهابي مستعداً للتضحية بنفسه كما يفعل الانتحاريون اليوم تهيأ لهم المناخ للحكم بدون معارضة.

١٨) ولكن الإخوان سعوا للحكم وكادوا أن يصلوا له، وأحياناً وصلوا له لفترة أو فترات؟

حدث فعلاً وفشلوا، فتعلموا من أخطائهم ولن يكرروها.

حاول الإخوان الوصول للحكم عن طريق دبابات الجيش فوقعوا ضحية للعسكر.

حاولوا استخدام عبد الناصر فاستخدمهم عبد الناصر ولعب بهم.

في الجزائر كانوا قواد الحركة الوطنية في مقاومة المستعمر الفرنسي ولكن بنفوذ عبد الناصر صار العسكريون في المقدمة ووصلوا للحكم دونهم، حاولوا تعويض ذلك بالسيطرة على التعليم منتهزين فرصة التعريب في الجزائر، فقام بالتعريب أئمة الإخوان وشبابهم من الغزالي إلى الشعراوي وغيرهم، وبالتعريب تحول الجيل الجديد إلى التطرف، وفي

الانتخابات كادوا أن يصلوا للسلطة ولكن عسكر الجزائر وقف لهم بالمرصاد وألغى الانتخابات في ظلّ سلبية عامة من جماهير الشعب الجزائري، فأقام المتطرفون مذابح دموية للأطفال والنساء والأبرياء الجزائريين انتقاماً من الحكام العسكر.

في السودان وصل الترابي إلى الحكم تابعاً للبشير فما لبث البشير أن ألقى به في السجن.

بسبب الإخوان والحركة السلفية انقسمت الهند إلى باكستان والهند، وبالنفط السعودي أنشئت المدارس الوهابية والجامعة الإسلامية في إسلام آباد. وقامت الحركة السلفية والإخوان في باكستان بتجميع أبناء الفقراء ويتامى الحروب وتعليمهم في المدارس وكلية الشريعة في إسلام آباد، وأطلق عليهم الطالبان. أصبح الطالبان قوة عسكرية ضاربة بانضمام أقرانهم من الأفغان على الحدود بين باكستان وأفغانستان.

انتهى الأمر بوصول الطالبان لحكم أفغانستان ثم انهزموا بعد أن أعطوا نموذجاً مفزعاً للحكم السلفي الإخواني.

في كل الأحوال تبين للإخوان أنّ العصر الآن ليس ملائماً لهم، لذا هم يعملون بصبر وأناة للمستقبل مستغلين كل ما يحدث الآن لصالح استراتيجيتهم الرامية إلى غسيل مخ الأفراد بالثقافة الوهابية وعقيدتها في الحاكمية. عندها تأتيهم السلطة راكعة وبدون معارضة أو نقاش بل السمع والطاعة.

١٩) إذا كانت هذه هي استراتيجيتهم، فما هو التكتيك الذي يتبعونه. ما هي خططهم؟

المساعدات المجانية تأتي للإخوان المسلمين بلا مشقة ومن الجميع بلا استثناء.

من مصلحة الإخوان تأكيد العداء بين المسلمين واليهود، وقد استغلوا

الصراع العربي الإسرائيلي في هذا عن طريق حماس وتحول النضال السلمي السياسي إلى إرهاب يقتل المدنيين اليهود في الشوارع والفنادق ودور العبادة والنوادي ومحطات المواصلات. مما جعل الوصول لحلول وسطى أكثر تعقيداً.

من مصلحة الإخوان تأكيد العداء بين المسلمين والمسيحيين، وهذا تتكفل به السياسة الأمريكية في العراق والشرق الأوسط، إذ يسهل تحويل الصراع السياسي إلى صراع ديني وفق المفهوم الإخواني.

يريد الإخوان تأكيد العداء بين المسلمين والأقباط في مصر فيتبرع بعض المتعصبين من الأقباط بالهجوم على الإسلام نفسه عبر مواقع الانترنت فيثيرون المعتدلين المسلمين المتعاطفين مع الأقباط والمناوئين للإخوان.

العسكر المستبدون بالسلطة في الشرق الأوسط هم الأعداء التقليديون للإخوان في مصر وسوريا وغيرها، وهم أيضاً الأكثر فائدة للإخوان لأنّ العسكر يحاولون المزايدة دينياً على الإخوان برعاية أكثر للثقافة السنية الوهابية.

وهناك ناحية أخرى إذ يجمع بين الإخوان والاستبداد العسكري الخوف من الإصلاح الديني والسياسي، لذا يتبارى العسكر في مطاردة دعاة الإصلاح ليبقى الحال على ما هو عليه ولصالح الإخوان.

الاستفادة الكبرى تأتي للإخوان مجاناً من جهتين:

الأولى: دول النفط ونشرها للفكر الوهابي بالقنوات الفضائية، ومواقع الانترنت، والإنتاج الفكري والثقافي والدرامي والديني.

الجهة الأخرى: هي التنظيمات المسلحة المختلفة وعملياتها الإرهابية في كل أنحاء العالم.

والهدف الأساسي لهذه العمليات هو شغل الغرب وأمريكا وكل من

يهمه الأمر بهذه الضربات الإرهابية المتفرقة عن ما هو أخطر، وهو «التمكين».

التمكين في مصطلحاتهم هو التوغل شيئاً فشيئاً في السيطرة على الأفراد عقائدياً، بحيث يكون الفرد مستعداً لتفجير نفسه عندما يؤمر. فإذا تمكنوا من السيطرة على أفراد المجتمع قلباً وقالباً فقد تحقق لهم التمكين والسلطان المقيم.

إذا وصلوا إلى تربية نصف مليون فرد على السمع والطاعة والاستعداد بحيث يكون كل فرد منهم متحمساً لأن يكون انتحارياً فسيبدأون المرحلة الأولى في التمكين، وهي الإرهاب العام لكل الأقباط والعلمانيين والمعارضين السياسيين والمفكرين لطردهم من مصر.

وعندها تخلو لهم مصر بملايينها المستضعفين ليصبحوا رعايا خاضعين لهم وفق ما كان سائداً في العصور الوسطى.

٢٠) إذن كيف نواجههم؟

المواجهة هنا فكرية ثقافية تسندها وتؤازرها مواجهة قضائية في ساحات المحاكم.

قبل التوضيح لا بد أن نبدأ هنا بالممنوعات وهي:

أولاً: المواجهة بالعنف مرفوضة.

إذا واجهت الفكر بالسلاح انتصر الفكر حتى لو كان فكراً سيئ السمعة. إذا قضيت على الدولة الأيديولوجية بالسلاح تاركاً أساسها الأيديولوجي فإنها ـ أي الدولة ـ لا تلبث أن تنهض طالما بقي بناؤها الأيديولوجي قائماً وقادراً على خلق الأنصار والأتباع.

قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية في هدوء بموت الخليفة العاضد الفاطمي. ولأنّ الدولة الفاطمية دولة أيديولوجية عقائدية تقوم على التشيع فإنّ صلاح الدين حارب التشيع من داخل الثقافة السائدة

لدى المسلمين، وكانت التصوف وقتها.

استورد صلاح الدين الأيوبي متصوفة إلى مصر وخصص لهم خانقاه سعيد السعداء وجعل لهم طقوساً في الذهاب لصلاة الجمعة ومنحهم وغيرهم الإمكانات حتى حولوا المجتمع المصري من التشيع إلى التصوف، فظل التصوف هو التدين العملي للمصريين إلى أن قلّص الوهابيون نفوذه أخيراً عن طريق الإخوان المسلمين.

ومحمد علي باشا هزم ودمر الدولة السعودية الأولى سنة (١٨١٨م)، واكتفى بهذا الجهد العسكري تاركاً الوهابية دون مواجهة فكرية مع وجود الأزهر وقتها عدواً لدوداً للوهابية، فازدهرت الوهابية وتضاعف أنصارها حتى خارج الجزيرة العربية مما مكن الأسرة السعودية من إعادة ملكهم في الدولة السعودية الثانية، ثم الثالثة.

عبد الناصر واجه الإخوان المسلمين بالعنف والتعذيب دون مواجهة للفكر الوهابي الذي تقوم عليه أيديولوجيتهم. ربما أراد بإصلاح الأزهر أن يقوم بهذه المهمة ولكن إصلاح الأزهر لم يكتمل وانشغل عنه عبد الناصر بمعارك أخرى ومات تاركاً المناخ موائماً للإخوان بعد أن أكسبهم شهرة وتعاطفاً بسبب ما فعله معهم من تعذيب واضطهاد.

استفاد الإخوان من سياسة عبد الناصر العنيفة معهم وخسر عبد الناصر في صراعه معهم لأنه استخدم السلاح غير المناسب.

المشكلة هي في نظام مبارك الذي يتفوق دائماً على نفسه بالفشل. يدافع بضراوة عن الفكر الوهابي ويجعله ممثلاً للإسلام، ويعاقب القرآنيين المصلحين ويتهمهم بازدراء الدين لأنهم يناقشون الوهابية والفقه السني بالقرآن والتراث نفسه.

وفي نفس الوقت يضطهد الإخوان ويقوم بتعذيبهم، يعاند الإصلاح الديمقراطي والإصلاح الديني ويصل بالبلاد إلى الحضيض في كل

الميادين، ويحاصر الأحزاب الشرعية في مقراتها، ويمنع العمل السياسي في الجامعات بينما يترك المساجد والأزهر مقصوراً على تدعيم فكر الإخوان السياسي والعقائدي مما يجعل الإخوان هم البديل المتاح بعد مطاردة كل المصلحين وتهميش منظمات المجتمع المدني الممثل الحقيقي للتقدم والإصلاح والديمقراطية.

بكل هذا الحمق من النظام نجح الإخوان وكان نجاحهم متوقعاً.

إنّ المواجهة مع الإخوان لا تكون إلا ثقافية فكرية عقلية مسالمة. التعامل معهم بالعنف هو الممنوع الأول.

الممنوع الثاني: هو دخول شخصيات مسيحية أو أفكار مسيحية أو علمانية في هذه المواجهة الثقافية الدينية و القضائية. لا يقوم بهذه المواجهة إلا مسلمون متدينون لهم تاريخهم في النضال ضد التطرف والإرهاب وخبرتهم في المواجهة ونبوغهم في الإسلاميات وولاؤهم لحقوق الإنسان وحقوق المواطنة والديمقراطية.

هم فقط الذين يستطيعون مواجهة الإخوان من داخل الإسلام ومن داخل عقيدتهم وثقافتهم وبنفس أسلوبهم وأدواتهم.

هم فقط الذين لا يستطيع الإخوان المزايدة عليهم في التدين الإسلامي أو في التبحر في علوم الإسلام وتاريخه وتراثه.

المواجهة الثقافية:

دعاة التطرف والإرهاب ليسوا فقط شيوخاً وأئمةً ومقدمي برامج دينية، ولكن أخطرهم هم كاتبو الدراما العادية والدراما التاريخية الإسلامية، إذ يتم الترويج لأفكار التطرف وثقافة الإرهاب بطريق فعال ـ وغير مباشر ـ من خلال الدراما التي تتسلل إلى عقل المشاهد ووعيه الباطني وتصيغه وتؤثر فيه وهو مستمتع لما يشاهد دون مناقشة أو احتجاج.

لقد أفلح الوهابيون وعملاؤهم في إنتاج دراما من تاريخ المسلمين وتراثهم أسهمت في نشر التعصب والتطرف.

لا بد من إنشاء قنوات تليفزيونية تواجه الوهابية ببرامج ثقافية تناقش المسكوت عنه في الفكر السلفي الوهابي في ضوء الإسلام وحقائقه لتثبت أنّ ثقافة الوهابية والإخوان تناقض الإسلام.

وتقدم أيضاً مسلسلات درامية مكتوبة بطريقة مدروسة تبتعد عن الغوغائية والوعظ المباشر، بل تتسلل إلى عقل المشاهد في سهولة ويسر.

هذه القنوات لا بد لها من شركات إنتاج للدراما والبرامج تغذيها وتملأ ساعات إرسالها بما يعزز رسالتها ويحقق الغرض منها..

علينا أن نقدم دراما تاريخية واقعية من حاضر المسلمين وتاريخهم توضح وتناقش المسكوت عنه وتشغل المتطرفين بالدفاع عن تراثهم وأكاذيبه.

ونفس الحال مع البرامج التليفزيونية التي ستجد مجالات هائلة من المسكوت عنه في التراث والتاريخ والماضي والحاضر.

هذه الحرب الفكرية بالقنوات الفضائية لا بد من تعزيزها بمواقع على الانترنت.

هذه الحرب الفكرية ستساعد المواجهة القضائية بالدعاية والتنوير وتسليط الضوء على القضية المطروحة أمام المحاكم لاجتذاب الرأي العام للحقائق المطلوب إثباتها قضائياً.

المواجهة القضائية:

نحتاج إلى مراكز قانونية متخصصة لرفع دعاوى ضد سياسات الدولة

وأجهزتها مثل الأزهر والأوقاف وبقية المؤسسات في تأكيد العدل وحقوق المواطنة وفي إصلاح التعليم وإصلاح الأزهر وفق ما يمليه قانون الأزهر نفسه والدستور بل وإصلاح الدستور.

هناك الكثير من المتاح لنا استغلاله والبناء عليه في إرساء الإصلاح عبر آليات التقاضي.

وتقوم البرامج التليفزيونية بالتعليق عليها لتشرك المجتمع في المناقشة ولتخلق رأياً عاماً مستنيراً يقوم بدوره بالتوعية ونشر ثقافة الديمقراطية وآداب الاختلاف في الرأي دون تخوين وتكفير ودون إطلاق المفتريات والأكاذيب، وبذلك يمكن إصلاح المناخ شيئاً فشيئاً.

الخاتمة:

كل مصلح يعلن آراءه وخططه على الملأ، لأنه لا يريد إلا الإصلاح ابتغاء مرضاة الله تعالى فقط.

هذا ما أفعله بكل وضوح حين أكتب ما أومن به حتى لو أتعب الكثيرين. لا أهتم برد الفعل لأنني لا أريد شيئاً من أحد.

ليست لي أجندة سرية لأنه ليس لي أيّ طموح سياسي ولا أرضى بالحلول الوسطى فيما يخص ديني ووطني.

آمل أن يقوم المخلصون لمصر بتنفيذ ما قلت لإنقاذ أم الدنيا.

إنّ مصر ـ بسكانها وبحضارتها القديمة وبحاضرها وبمستقبلها وبتأثيرها ـ توشك أن تقع في قبضة أشدّ طوائف الحنابلة تعصباً وتطرفاً وانغلاقاً وأكثرهم دهاءً.

لقد جرت مصر في طرق عديدة من القومية العربية إلى الاشتراكية، وقد

رأينا إرهاصات مما فعله التيار الوهابي الإخواني قبل أن يصل للسلطة في مصر وفي العراق والجزائر وباكستان وغيرها..

وشهدنا حكم الوهابيين في الجزيرة العربية وأفغانستان. لم يعد لمصر المزيد مما تفقده بعد أن أفقدها نظام مبارك كل شيء.

لا نريد أن تكون مصر جثة بين يدي الإخوان يجربون فيها تخلف الفقه السني الذي لم يكن مناسباً لعصره، فكيف يكون مناسباً لعصرنا؟

إنه نداء لكل مصري وكل مسلم - حتى من الإخوان المسلمين - تعالوا إلى كلمة سواء نضع فيها كثيراً من النقاط فوق كثير من الحروف قبل أن نقفز بمصر في الظلام.

لا نريد أن يأتي اليوم الذي يتحسّر فيه المصريون على أيام حسني مبارك الذي وصلنا فيه إلى الحضيض.

تسألون عما هو أسفل من الحضيض؟

سترونه بأعينكم إذا ظللتم على سلبيتكم جثة هامدة تنتقل من عسكر مبارك إلى شيوخ الإخوان.

عندها اذكروني بخير فقد صرخت في البرية أحذركم ناصحاً فلم أسمع إلا سباً وشتماً آتياً من أسفل الحضيض الذي أخشى عليكم منه.

والله تعالى المستعان.

الملحق الثالث

مقدمة

السائد خطأ بين الناس أنّ للإسلام دولة دينية، والوهابيون السلفيون والإخوان المسلمون يناضلون لإقامة تلك الدولة الدينية على أنقاض دول الاستبداد العسكري والحزبي الحالية.

ومن قبل نجح السعوديون بمذهبهم الوهابي في إقامة دولة دينية تحكم طبقاً للحاكمية التي تجعل الحاكم يحكم باسم الله تعالى ويستمد منه السلطة وليس مسؤولاً إلا أمام الله تعالى يوم القيامة، وهذه الحاكمية شر أنواع الاستبداد الذي ساد في العصور الوسطى في العالم بأسره، وكانت تعرفه أوروبا وقتها بمبدأ الحق الملكي المقدس.

وبعد نضال استمر قروناً تخلص الغرب من الاستبداد الديني وأرسى الديمقراطية.

ثم تسللت رياح الديمقراطية والإصلاح إلى مصر منذ عصر إسماعيل إلى جهود محمد عبده الإصلاحية لولا أنّ الدولة السعودية أنشأت حركة الإخوان المسلمين في مصر فنشرت ثقافة الاستبداد الديني المنتمية للعصور الوسطى، وعطلت الإصلاح السياسي والديني وقامت بتغييب الديمقراطية كفريضة إسلامية.

والمؤسف أن يحدث هذا ويستمر في عصرنا الحديث؛ عصر الديمقراطية.

وهكذا فبينما تغزو رياح الديمقراطية دول أفريقيا فإنّ الشرق الأوسط ـ مهد الحضارات والرائد الطبيعي والملهم لأفريقيا ـ لا يزال بعيداً عن الديمقراطية بسبب ثقافة التخلف السني الوهابي التي نشرها الإخوان المسلمون على أنها الإسلام مع تناقضها مع الإسلام.

وبينما تنادي كل حركات المعارضة في كل دول العالم بالديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الفكر والعقيدة فإنّ المعارضة السنية السلفية الوهابية الإخوانية تقف ضد الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الأقليات الدينية والمذهبية والعنصرية وحقوق المرأة.

وبينما تتطلع حركات المعارضة ـ وأحياناً النظم الحاكمة نفسها ـ إلى المستقبل وتستعد له في ظل ثورة المعلومات والاتصالات وقفزاتها الهائلة فإنّ الإخوان والوهابيين يريدون العودة بنا إلى العصور الوسطى، وأكاذيب البخاري، وتفاهة أبي هريرة، وتخلف الشافعي، وتحجر ابن حنبل، والإرهاب الدموي لابن عبد الوهاب.

وبينما تحول الكفاح في عصرنا إلى الوسائل السلمية والسياسية فإنّ الجهاد السلفي أصبح قتلاً للمدنيين في الشوارع والمساجد والكنائس والمقاهي والبيوت.

ما أتى الإسلام إلا للقضاء على الدولة الدينية وكهنوتها، لذا كانت دولة النبي محمد ﷺ دولة علمانية ديمقراطية لا تزال ملامحها في القرآن الكريم، ومع القضاء على كل ملامح هذه الدولة فلا يزال باقياً من معالمها أنه ليس في الإسلام كهنوت أو مؤسسة دينية أو رجل دين، هذا مع أنّ المسلمين أقاموا كهنوتاً ومؤسسات دينية ودولاً دينية.

يزيد المشكلة تعقيداً أنّ العلمانيين العرب يعتبرون أنّ الأزهر وتنظيمات الإخوان المسلمين السرية والعلنية هم الممثلون للإسلام، وأصبح من الأخطاء الشائعة تسميتهم بالإسلاميين، مع أنهم سلفيون وهابيون وليسوا إسلاميين.

ويعتبر العلمانيون مشروع الإخوان السياسي في الدولة الدينية أنه الدولة الإسلامية مع التناقض الهائل بين الدولة الإسلامية والدولة الدينية. الذي لا يعرفه العلمانيون أنّ الإسلام دين علماني، وأن دولته الإسلامية دولة علمانية.

صحيح أنه توجد خلافات بين علمانية الإسلام وعلمانية الغرب التي تأثّر بها العلمانيون العرب، ولكن الصحيح أيضاً أنّ هناك خلافاً في داخل العلمانيات الغربية ذاتها، منها العلمانية الشيوعية التي ترفض الدين مطلقاً وتعتبره أفيوناً للشعوب، ومنها العلمانية الرأسمالية بانفتاحها وقبولها للمسيحية.

وهناك خلافات محلية داخل العلمانية الشيوعية، كما توجد خلافات نوعية داخل العلمانية الغربية حول مدى الفصل بين الدين والدولة والدين والسياسة.

وهكذا فمن الطبيعي أن توجد خلافات بين علمانية الإسلام وعلمانيات البشر المختلفة فيما بينها. ولكن لا بد من التذكير والتأكيد على التناقض بين الإسلام وثقافة الإخوان المسلمين والسلفية حتى نستريح مقدماً من ذلك الخلط المؤلم بين النقيضين.

نحن هنا نتحدث عن حقائق الإسلام التي جاءت في القرآن، والتي يمكن فهمها بسهولة إذا قرأنا القرآن الكريم قراءة موضوعية وفقاً لمفاهيمه ومصطلحاته بعيداً عن مفاهيم التراث وسمومه.

إنّ قيم الإسلام العليا ـ وهي العدل والحرية المطلقة في الفكر والعقيدة والدين ـ هي مهمة الدولة وعليها توفيرها للأفراد.. تطبيق معظم تشريعات القرآن موكول للفرد وحريته في الطاعة أو الرفض دون إكراه أو تدخل من الدولة، وهو مسؤول عن ذلك أمام الله تعالى. لا يتدخل المجتمع ـ ممثلاً في الدولة ـ إلا في ما يتعلق بحقوق الأفراد وحق المجتمع ـ أي العقوبات، وهي تسقط بالعفو و بالتوبة. والتوبة تعني إرجاع الحقوق لأصحابها، والتعهد بعدم العودة للجرم والاعتداء.

وعموماً معظم تشريعات القرآن تفصيلات في قوانين الأحوال الشخصية والميراث، وبعضها قواعد عامة أو احتكام للعرف أو المعروف، وهو ما يتعارف الناس على أنه عدل وتيسير.

وعموماً فإنّ المذكور في تشريعات الإسلام في القرآن لا يتعدى مائتي آية بالمكرر والتفصيلات والقواعد، ومعناه أنّ هناك مساحة هائلة متروكة لسن التشريعات البشرية في ضوء العرف أو المعروف المتعارف على أنه عدل وخير وفيه مصلحة للمجتمع.

وبهذا يمكن تطبيق كل القوانين العصرية بما يلائم حركة المجتمع ومصالحه.

وأيّ قانون يحقق مصلحة المجتمع ويتماشى مع العرف أو المعروف فهو تشريع إسلامي، كما أنّ أيّ دولة تحقق العدل وحقوق الإنسان والديمقراطية هي دولة إسلامية بغضّ النظر عن جنسيتها وخلفيتها الحضارية والثقافية.

وواقع الأمر أنّ النبي ﷺ أقام دولة مدنية ديمقراطية علمانية في أشدّ العصور الوسطى إظلاماً. لم يلبث المناخ المظلم للعصور الوسطى أن أطفأ نورها إلا أنه بقي منها أصولها القرآنية، وما تواتر في السيرة النبوية عن

إقامة تلك الدولة في الجزيرة العربية.

دولة الإسلام المدنية العلمانية الديمقراطية ما لبثت أن تحولت إلى الاستبداد السياسي والحكم القبلي بعد الحروب الأهلية بين الصحابة، أو ما يعرف بالفتنة الكبرى وتأسيس الدولة الأموية، ثم تحول الحكم الاستبدادي القبلي إلى حكم ديني سياسي في الدولة العباسية، واستمر هذا النظام سائداً إلى سقوط الدولة العثمانية تحت اسم الخلافة.

وقد اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة المدنية الإسلامية بعد النبي محمد ﷺ بالخلافة الرشيدة أو الراشدة، وأطلقوا على الدول التالية مسمى الخلفاء فقط، أي لم يكونوا خلفاء راشدين.

وهذا في حد ذاته دليل على تحوّل هائل في نظام الحكم دفع المسلمون ثمنه غالياً ولا يزالون.

وقد تم تدوين التراث في عصر الخلفاء العباسيين غير الراشدين، وذلك التدوين تجاهل كتابة التاريخ الحقيقي لدولة النبي محمد ﷺ وفق الإشارات التي جاءت في القرآن الكريم، بل على العكس قام بإضافة ما يتفق وأيديولوجية الاستبداد في الدولة الدينية العباسية.

وسنناقش سريعاً التناقض بين الدولة الإسلامية في عصر النبي ﷺ والدولة الدينية في العصر العباسي وما تلاه.

أساس التناقض بين الدولتين: الإسلامية والدينية:

سبق العلامة ابن خلدون في الإشارة إلى الاختلاف بين الدولة الدينية والدول التي نعرفها الآن بالعلمانية، ففي فصل في (المقدمة) بعنوان «معنى الخلافة والإمامة» يقسم النظام الملكي إلى نوعين وهما الملك الطبيعي وهو

الذي يحكم بالهوى والشهوة، ويراه فجوراً وعدواناً، والملك السياسي وهو الحكم بالعقل في جلب المصالح ودفع المضار.

ويراه أيضاً مذموماً لأنه ينظر بغير نور الله.

وفي النهاية يرى ابن خلدون أنّ نظام الخلافة هو الأفضل، لأنه إرغام الكافة بالشرع للنظر في مصالحهم الدنيوية والأخروية «أي هي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

باختصار يرى ابن خلدون أنّ أساس الدولة الدينية هو إكراه الناس في الدين وإلزامهم بإقامة الشرع، ليس شرع الله تعالى الحقيقي ولكن الشرع الذي يكتبه فقهاء السلطة الاستبدادية.

ولكن هدف الدولة غير الدينية إذا كانت عاقلة هو جلب المصالح للناس ودفع الضرر عنهم.

وابن خلدون باعتباره قاضياً شرعياً ينحاز للدولة الدينية التي يعيش في كنفها ويسيطر عليه تراثها، ونحن هنا نختلف معه ومع الآخرين.

فليس إدخال الناس الجنة وهدايتهم إلى الحق هو الأساس في إقامة الدولة الإسلامية.

لأن الهداية مسؤولية شخصية لكل إنسان؟ ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، بل إنّ الهداية ليست وظيفة النبي ﷺ حتى حين كان حاكماً.

يقول تعالى له: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[2].

---

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

ويقول له ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[١].

ويقول له ﷺ يؤكد عدم الإكراه في الدين: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢]،

ويقول له ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

أما الأساس في إقامة الدولة الإسلامية فهو إقامة القسط بين الناس، أو بتعبير الفقهاء رعاية حقوق العباد أو بتعبيرنا رعاية حقوق الإنسان.

والفقهاء المستنيرون أكّدوا على أنّ حقوق الله تعالى من الإيمان به جل وعلا وعبادته هي مسؤولية شخصية والحكم فيها مرجعه لله تعالى يوم القيامة، أما حقوق العباد فهي مسؤولية الدولة في هذه الدنيا. والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٤]، أي أنّ الهدف الأساسي من إنزال الكتب السماوية وإرسال الأنبياء والرسل هو أن يقيم الناس القسط فيما بينهم.

والقسط نوعان، القسط أو العدل في التعامل مع الله تعالى بحيث لا نشرك به أحداً، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥].

والحكم في هذا الموضوع مرجعه لله تعالى يوم القيامة في كل ما يخص تصورات البشر عن ربهم جل وعلا، يقول تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ

---

[١] القصص: ٥٦.

[٢] البقرة: ٢٥٦.

[٣] يونس: ٩٩.

[٤] الحديد: ٢٥.

[٥] لقمان: ١٣.

يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

أما النوع الثاني فهو القسط أو العدل في التعامل مع البشر وذلك يستلزم نظام حكم، وبقدر نجاح ذلك النظام في إقامة العدل تكون إسلاميته، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، ولذلك فإنّ العقوبات في تشريع القرآن تهدف أساساً لحقوق العباد أو حقوق الإنسان في الحياة والمال والعرض والشرف.

ومن إقامة القسط تتفرع كل حقوق الفرد وحقوق المجتمع والتوازن بين العدل والحرية في منظومة رائعة تفتقدها البشرية المعاصرة.

أما في الدولة الدينية فالأمر مختلف.

فكل دولة دينية تتبنى مذهباً دينياً ترغم الناس على قبوله وتستخدمه في تدعيم سلطتها، وفيها يتمتع الحاكم وحده بالسلطة والثروة ويعاونه رجال الدين في إخضاع الشعب لاستبداده، بحيث يصير انتقاده خروجاً على الدين.

وبطبيعة الحال تعاونه قوة عسكرية يستخدمها لإرهاب الناس، وبالكهنوت الديني والعسكر يصير الحاكم المستبد المتأله في اعتقاد الناس متحكماً في الدين والدنيا والآخرة.

وبينما يكتفي الاستبداد العادي بقتل المعارضين فإنّ الاستبداد في الدولة الدينية يصادر حق الخصوم في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، إذ يقتلهم باسم الشرع متهماً إياهم بالكفر والردة، ويزعم أنهم أيضاً من أهل النار منتزعاً سلطة الله تعالى في الآخرة بعد أن انتزع سلطة الشعب في الدنيا..

---

[1] الزمر: ٤٦.

وكل ذلك تحت لافتة الشرع وإقامة الدين.

وفي ذلك ظلم عظيم لله تعالى ورسوله ودينه.

وهذه هي خلاصة التاريخ الواقعي للدول الدينية في الشرق والغرب في كل العصور القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة في تاريخ المسيحية والإسلام،

كلها استغلت دين الله تعالى في ظلم الناس وإرهابهم وأكل أموالهم بالباطل.

وهذا ينافي إقامة القسط، وهو الهدف الأساسي للدين الإلهي الحقيقي.

التناقض في حقوق الإنسان بين الدولتين:

أولاً ـ في الدولة الإسلامية:

إقامة القسط بين الناس في الدولة الإسلامية تتوازن فيها حقوق الفرد مع حقوق المجتمع، كما يتوازن فيها العدل مع الحرية، أما في الدولة الدينية فلا يحتاج الأمر إلى هذا التشابك والتداخل، حيث يتمتع فيها فرد واحد بكل الحقوق وهو الحاكم، وتنتهي الأمور عند هذا الحد.

ونأتي إلى التفصيل: فللفرد حق مطلق في الدولة الإسلامية في شيئين وهما القسط وحرية الفكر والاعتقاد. وللمجتمع حق مطلق في ثلاثة أشياء، وهي السلطة والثروة والأمن. وللفرد حقوق نسبية في هذه الأشياء الثلاثة.

(١) حق الفرد المطلق في القسط:

لن نتوقف بالتفصيل مع الآيات القرآنية التي توجب إقامة العدل

والقسط في التعامل مع العدو أو الصديق مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[٢].

ويقول عز وجل: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[٣].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى﴾[٤].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٥].

لن نتوقف مع هذه الآيات الكريمة إلا في تقرير حقيقة قرآنية واحدة، وهي أنّ الحكم المقصود في الآيات هو الحكم القضائي، أو الحكم بين الناس، وإقامة ذلك الحكم بالقسط يعني أنّ الوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية هي إقامة العدل والقسط، أو الحكم بين الناس بالعدل، وليس حكم الناس أو التحكم فيهم.

[١] النحل: ٩٠.

[٢] النساء: ٥٨.

[٣] الأنعام: ١٥٢.

[٤] النساء: ١٣٥.

[٥] المائدة: ٨.

والمعنى المقصود أن يقتصر تدخل الدولة بين الناس على إقامة القسط في الداخل.

ولكن إلى أيّ حد؟

نقول: إلى حد القسط المطلق للأفراد، أي بنسبة مائة في المائة، وتتعرف على ذلك من التفرقة الدقيقة بين كلمتين قرآنيتين وهما «المقسطون»، و«القاسطون»، والمقسط هو تعبير مبالغة يفيد تحري القسط دائماً، أي القسط بنسبة مائة في المائة. ويتكرر في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1]، فالذي يراعى العدل بنسبة ١٠٠٪ يحبه الله، أما القاسط الذي يراعى العدل بنسبة أقل من ١٠٠٪ فمصيره جهنم، يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[2].

(٢) ـ الحق المطلق في الفكر والعقيدة:

في القرآن الكريم أكثر من خمسمائة آية قرآنية تؤكد حرية العقيدة وحرية التعبير عنها وحرية الفعل العقيدي إيماناً وكفراً، وإرجاع الحكم في العقائد لله تعالى يوم القيامة، وأنّ ذلك يسري على النبي ﷺ نفسه.

ونكتفي من مئات الآيات القرآنية التي تؤكد حرية العقيدة ببضع آيات قلما يستشهد بها الناس.

فالله تعالى يقول للبشر: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىَ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىَ ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ مّرْجِعُكُمْ

[1] المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨.

[2] الجن: ١٥.

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١].

إذن هي حرية مطلقة في الإيمان والكفر، ومسؤولية شخصية والحساب عليها أمام الله تعالى يوم القيامة.

والله تعالى يقرر أيضاً حرية الفعل الإلحادي مع آيات الله، ويجعل العقوبة عليه يوم القيامة، ويؤكّد حفظ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[٢].

يوم القيامة يكون البشر حسب تصوراتهم عن الله وعقائدهم فيه قسمين كل منهما خصم للآخر، وأحدهما في النار والآخر في الجنة، والله تعالى يقول **﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾**[٣].

والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم ساوى بينهما في وصف الخصومة، ولم يجعل أحد الخصمين حكماً على الآخر، إذ كيف يكون الشخص خصماً وحكماً في نفس الوقت، هذا مع أنّ أحد الخصمين سيكون ناجحاً وفائزاً يوم القيامة، بل إنّ النبي محمداً ﷺ سيكون يوم القيامة خصماً لأعدائه الذين اضطهدوه في مكة وماتوا على كفرهم وبغيهم دون توبة، والله تعالى يقول للنبي محمد ﷺ وخصومه: **﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ. ثُمَّ**

---

(١) الزمر: ٧.

(٢) فصلت: ٤٠ : ٤٢.

(٣) الحج: ١٩.

﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1]، فالنبي ﷺ سيختصم معهم أمام الله تعالى، والآية تساوى بين النبي وبينهم في الخصومة واستحقاق الموت.

وهكذا فإنّ الفرد يتمتع في الدولة الإسلامية بحق مطلق في العدل وحق مطلق في حرية الرأي والعقيدة في الإيمان أو الكفر، في الهداية أو الضلال طالما لا يتعرض في حريته القولية والفعلية إلى سب الأشخاص وإهانتهم، هنا يقع في عقوبة القذف وهي من حقوق الأفراد أو حقوق الإنسان وليس من حقوق الله تعالى. حسابه عن عقيدته عند ربه فقط يوم القيامة وليس لأيّ بشر أن يتدخل في تلك الحرية الدينية بأيّ حال من الأحوال، وإلا كان مدعياً للألوهية متقمصاً دور الله تعالى، وهذا ينافي عقيدة الإسلام في أنه لا إله إلا الله.

(٣) ـ حق المجتمع المطلق في السلطة السياسية: أو «الشورى» الأمة مصدر السلطة:

الله تعالى وحده هو الذي لا يُسأل عما يفعل، وما عداه يتعرض للمساءلة[2].

وعليه فإنّ المستبد بالسلطة والذي يتعالى عن المساءلة من الشعب إنما يجعل نفسه مدعياً للألوهية، ولذلك فإنّ الاستبداد يقترن بادعاء الألوهية صراحةً أو ضمناً، وهذا ما يؤكد التناقض بين الاستبداد والإسلام في مجال العقيدة، وفي نفس الوقت يوثق الصلة بين الشورى ـ أو الديمقراطية الإسلامية وعقيدة أنه لا اله إلا الله تعالى.

---

(١) الزمر: ٣٠: ٣١.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

وقد جعل الله تعالى من فرعون موسى عليه السلام مثلاً للمستبد الذي أوصله استبداده لادعاء الألوهية، وتكرّرت قصته في القرآن للتأكيد على هذا المعنى للأجيال القادمة بعد نزول القرآن الكريم..

وهذا هو موقع الشورى في عقيدة لا إله إلا الله الإسلامية، يعزز ذلك أنه إذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله مأموراً بالشورى في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1]، فإنّ أيّ حاكم يستنكف من الشورى يكون قد رفع نفسه فوق مستوى النبي، أي يكون مدعياً للألوهية.

على أنّ الآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[2] تؤسس حق المجتمع المطلق في السلطة، أو أنّ الأمة مصدر السلطات، وهذا يشمل كل الأمة من رجال ونساء وأغنياء وفقراء على قاعدة المساواة.

تقول الآية في خطاب النبي صلى الله عليه وآله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[3]. أي بسبب رحمة من الله جعلك ليناً معهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، وإذا انفضوا من حولك فلن تكون لك دولة ولن تكون لك سلطة، لأنك تستمد سلطتك من اجتماعهم حولك، وإذن فهم مصدر السلطة والقوة لك، وبهم تكونت لك دولة وانتهت قصة اضطهادك في مكة، ولأنهم مصدر السلطة فاعف عنهم إذا أساؤوا إليك واستغفر لهم إذا أذنبوا في حقك وشاورهم في الأمر لأنهم أصحاب الأمر، فإذا عزمت على التنفيذ فتوكل على الله.

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

إذن فالنبي ﷺ حين كان «حاكماً» للدولة الإسلامية لم يستمد سلطته من الله كما يدّعي أصحاب الدولة الدينية، وإنما يؤكد القرآن على أنه كان يستمد سلطته من الأمة ومن اجتماعها حوله، ولذلك جعله الله تعالى برحمته ليناً هيناً معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب لتركوه وانفضوا عنه وانهارت دولته.

وهذا هو النبي وتلك دولته الإسلامية..!!

والدولة الإسلامية تتفق مع الدولة العلمانية في أنّ الأمة أو المجتمع هو مصدر السلطات. وتختلف الدولتان (الإسلامية والعلمانية) عن الدولة الدينية في ذلك الأمر، إلا أنّ الدولة الإسلامية تختلف أيضاً مع الدولة العلمانية في تطبيق مبدأ «الأمة مصدر السلطات» الذي يعبر عن حق المجتمع المطلق في السلطة.

فالدولة العلمانية في تنفيذها هذا المبدأ تعتنق نظرية العقد الاجتماعي، وهو أن الأمة تتنازل عن جزء من سيادتها لحاكم ومجموعة من الناس لكي تحكم بالنيابة، وتنتخب الأمة مجموعة تمثلها في البرلمان وتنوب عنها في التشريع ومساءلة الحاكم، باختصار فالأمة في الدولة العلمانية لا تحكم وإنما تنيب عنها من يحكمها وتنيب عنها من يمثلها ويتحدث باسمها، وهذه نقطة الخلاف بين الدولة المدنية الإسلامية والدولة المدنية العلمانية.

فالخطاب السياسي والتشريعي في القرآن لا يتوجه إلى حاكم مسلم أو سلطة حاكمة مميزة تختص بالحكم والتشريع والتطبيق. وإنما يتوجه إلى الأمة التي تحكم فعلاً نفسها بنفسها وفق ما يسمى بالديمقراطية المباشرة والتي يكون فيها الحاكم موظفاً بعقد وبأجر ولمدة محدودة لينفذ المطلوب منه باعتباره أجيراً وخادماً للأمة، فإذا انتهى عقده رجع إنساناً عادياً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

ولكي تمارس الأمة هذا الحق المطلق لها في السلطة فإنّ القرآن قام بتحويل هذا الحق إلى فريضة ملزمة واجبة وقرنها بالصلاة والزكاة، وذلك في سورة «الشورى» قبل أن يقيم المسلمون لهم دولة، وسورة الشورى مكية، وفيها يقول تعالى يصف المجتمع المسلم المدني فيقول من ضمن ملامحه ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، فجاءت الشورى بين الصلاة والزكاة لتؤكد أنها فريضة كالصلاة تماماً، فإذا كانت الصلاة فرض عين فالشورى كذلك، وإذا كانت الصلاة تؤدى في المسجد فكذلك كانت الشورى، وإذا كانت الصلاة لا تصح فيها الاستنابة والتمثيل النيابي فالشورى أيضاً كذلك. كما أن الحديث عن الشورى جاء وصفاً للمجتمع القوي الذي يمسك زمام أموره بنفسه، فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾. وكون أمرهم شورى بينهم يؤكد على اشتراكهم جميعاً في مسؤولية القيام بالأمر على قاعدة المساواة، بلا فرق بين غنى أو فقير، رجل أو امرأة.

وهنا يتأكد نفس الخطاب القرآني في التوجه للمجتمع بأسره دون حاكم. في التشريع الإسلامي في الدولة الإسلامية يأتي الخطاب دائماً للمجتمع وعن المجتمع عندما يكون التشريع عاماً وغير مختص بعصر النبي وحده، واقرأ مثلاً ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ

---

[1] الشورى: ٣٨.
[2] الأنفال: ٦٠.
[3] البقرة: ١٧٨.

أَهْلِهَآ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَىٰ﴾[3].

وعندما انتقل المسلمون إلى المدينة وأقاموا لهم دولة «مدنية» كانت مجالس الشورى تعقد في المسجد وينادى على الناس بأذان يقول «الصلاة جامعة».

وفي بداية الأمر تثاقل بعض الأنصار عن حضور مجالس الشورى، وبعضهم كان يعتذر للنبي قبل الحضور، وبعضهم كان يعتذر بعد الحضور، وبعضهم كان يتسلل لواذاً بعد الحضور دون استئذان.

وذلك التثاقل يعني أن ينفرد بالأمر قلة لا تلبث أن تحتكر السلطة، وتتعطل فريضة الشورى ويضيع حق الأمة بسبب تهاون أبنائها وتحولهم إلى «أغلبية صامتة»، من أجل ذلك نزلت الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النور، وهي من أوائل السور المدنية، نزلت الآيات تجعل حضور مجالس الشورى فريضة إيمانية تعبدية وتهدد وتحذر من يتهاون في الحضور، والتزم المسلمون بعدها في حضور مجالس الشورى، وتحدثت سورة المجادلة عن مكائد المنافقين وإشاعاتهم في تلك المجالس[4].

ولأنه ليس في الدولة الإسلامية حاكم فرد ـ ديمقراطي أو استبدادي ـ ولأنّ المسلمين كانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم وفق نظام محدد أشار إليه

---

(١) النساء: ٣٥.

(٢) النساء: ٥.

(٣) النساء: ٦.

(٤) المجادلة: ٧: ١٣.

القرآن وفصلناه في مؤلفات لنا سابقة فإنّ النبي محمداً ﷺ حين مات لم يرشح بعده حاكماً بل ترك الأمة تحكم نفسها بنفسها وفق ما تعودوا عليه في عصره.

وأول خروج عن تعاليم الإسلام حدث حين أقام المهاجرون أبا بكر حاكماً بسبب ظروف استثنائية كانت لمواجهة هجوم المرتدين على المدينة فاحتاجوا إلى قائد حربي ما لبث أن تحول إلى حاكم فردي ديمقراطي.

ثم تزايد العصيان لتشريع الإسلام بالفتوحات العربية التي حملت اسم الإسلام زوراً لتعتدي على من لم يعتدوا على المسلمين ويحتلوا بلادهم، وأدّى الوضع الجديد ـ الفتوحات ـ إلى الحروب الأهلية، والتي أدت بدورها إلى تدمير الحكم الديمقراطي للخلفاء الراشدين، وتحوله إلى حكم استبدادي وراثي قائم على القهر هو الحكم الأموي العسكري القبلي، وهو الذي أسلم الراية إلى الحكم العباسي الديني الذي شهد تدوين التراث للمسلمين ليبرر الدولة الدينية ويؤكد زوراً انتماءها للإسلام بالأحاديث المنسوبة كذبا للنبي محمد ﷺ والفتاوى التي أصدرها علماء السلطان المستبد.

والشيخ علي عبد الرازق الذي قال بالفصل بين الإسلام والدولة أساء فهم الآيات القرآنية التي كانت تخاطب مجتمعاً ولا تخاطب حاكماً أو رئيساً. ولأنّ العقول عاشت على وجود رئيس يستأثر بالسلطة ويتوجه إليه الخطاب فإنّ الشيخ علي عبد الرازق فهم خطأ أنه ليس في الإسلام دولة، لأنّ القرآن لا يخاطب حاكماً.

وفعلاً فإنّه ليس في الإسلام دولة ثيوقراطية أو حتى دولة رئاسية، وإنما هي دولة يحكمها شعبها بالديمقراطية المباشرة وفق نظام الدولة السويسرية في عصرنا. إنّ أساس قوة هذه الدولة في قوة أفرادها وقوة المجتمع،

والشورى في مصطلح القرآن وشريعته هي فن ممارسة القوة. وكل فرد مفروض عليه أن يمارس الشأن العام بحيوية وفعالية. وليس من حق أحد أن يستأثر بالسلطة. وإذا حدث ذلك فإنّ الشورى تصبح فريضة غائبة.

(٤) ـ حق المجتمع المطلق في الثروة:

الثروة في الأصل ملك لله تعالى، وقد جعلها حقاً مطلقاً للمجتمع، وهي حق نسبي للأفراد بحسب العمل وحسن الاستغلال والاستثمار، وهي حق للورثة طالما أحسنوا الاستغلال والاستثمار، فإذا تصرفوا بسفاهة قام المجتمع بالحجر عليهم والالتزام بالإنفاق عليهم وحسن معاملتهم.

نستفيد هذا من قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً. وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾[1]، فالمال حق مطلق للمجتمع، ولهذا كان الخطاب للمجتمع في الإشراف على الثروة ﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ**﴾، والمجتمع هو القائم على تنمية الثروة ﴿**الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾، فإذا أحسن الفرد القيام على تنمية ثروته كانت حقاً له ﴿**فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾، ويتجلى هذا في الفرق بين كلمتي «أموالكم» و«أموالهم» في الآية.

وبالنسبة لمن يعجز عن الكسب فإنّ له حقاً في ثروة الأمة، والقرآن يؤكد على «حق» السائل والمحروم وحق المسكين واليتيم وابن السبيل في الصدقات الفرية والصدقات الرسمية كقوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ**

---

[1] النساء: ٥: ٦.

مّعْلُومٌ. لّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌ لّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[٥].

ويلاحظ هنا أنّ حقوق الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل لا شأن لها بالعنصر والدين والإيمان والكفر والملة والطائفة والذكورة والأنوثة.

يكفي أن يكون أحدهم فقيراً أو مسكيناً أو ابن سبيل أو يتيماً ليأخذ حقه.

(٥) ـ حق المجتمع المطلق في الأمن:

الوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية نحو أفرادها هي إقامة القسط وضمان حرية العقيدة وحمايتهم داخلياً وخارجياً بتوفير الأمن الداخلي والخارجي. الأمن ضد الخطر الخارجي يعني أن يكون للمجتمع جيش قوي يرهب الأعداء من الاعتداء عليه ﴿وَأَعِدّواْ لَهُمْ مّا اسْتَطَعْتُمْ مّن قُوّةٍ وَمِن رّبَاطِ

---

[١] المعارج: ٢٤: ٢٥.

[٢] الذاريات: ١٩.

[٣] الإسراء: ٢٦.

[٤] الروم: ٣٨.

[٥] الأنعام: ١٤١.

الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوّ اللّهِ وَعَدُوّكُمْ﴾[١].

وهذا الاستعداد لإرهاب العدو يعني ردعه عن التفكير في الاعتداء، وبالتالي حقن الدماء ـ دماء العدو ودماء أبناء الدولة الإسلامية ـ وهذا يقع ضمن مشروعية القتال في الدولة الإسلامية.

إنها دولة تعتنق السلام كفريضة دينية في تعاملها الدولي، إذ لا مجال في شريعة الإسلام للاعتداء على أحد بل مجرد رد العدوان بمثله. وشأن الدولة المسالمة أن يتشجع المعتدون على الاعتداء عليها إذا اقترن السلام عندها بالضعف، ولذا كان لا بد من أن يقترن السلام بالقوة الحربية لتخويف المعتدين وردعهم. وبذلك فإنّ القرآن الكريم في تشريعاته قد سبق سياسة الردع النووي التي استعملها المعسكران الغربي والشيوعي في النصف الثاني من القرن السابق.

ومشروعية القتال في الدولة الإسلامية تتفق والقسط والعدالة، فكلّ الآيات التي تحضّ على القتال هي أوامر تشريعية تخضع لقواعد تشريعية تحصر القتال في الدفاع ورد الاعتداء بمثله **﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[٢]، وقال تعالى: **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾**[٣]، ثم المقصد النهائي للقتال هو أن يكون لمنع الاضطهاد والإكراه في الدين، والمصطلح القرآني هو الفتنة وتعني الإكراه في الدين، يقول تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ**

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٩٠.

(٣) البقرة: ١٩٤،١٩٠.

الدّينُ للّهِ﴾[١]، ويقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلّهُ للهِ﴾[٢]، ومعنى أن يكون الدين كله لله أي بدون كهنوت، وأن يكون الناس أحراراً في اختيار ما يشاؤون من عقائد حتى لا تكون لأحدهم حجة أمام الله تعالى يوم القيامة.

إذن فالعدل والقسط هما أساس التعامل مع العدو الخارجي ويكون بتكوين دولة قوية بجيشها وأهلها، لتؤكد حق المجتمع المطلق في الأمن.

كما أنّ من حق الأفراد النسبي أن يعيش كل منهم آمناً وعلى أساس التساوي وبحيث لا يستأثر فرد واحد بالحماية دون الآخر، حتى لو كان ذلك الفرد هو رئيس الدولة، وفي الدولة الدينية والدولة المستبدة العلمانية والعسكرية، وحتى في الدولة الديمقراطية التمثيلية نرى نصيب الحاكم في الأمن يفوق ما للفرد العادي من الحماية.

بل إنّ الدول المستبدة ـ علمانية أو دينية ـ تنفق على الأمن السياسي الذي يعني أمن الفرد الحاكم وزمرته أضعاف ما تنفق على الأمن الجنائي الذي يحمي المجتمع كله.

إنّ الأمن هو مقياس مدى ما يتمتع به الحاكم من سلطات. في دول الديمقراطية المباشرة يكون الحاكم أجيراً حقيقياً للمجتمع لا يتميز عن الشخص العادي بشيء، وهكذا كان النبي محمد ﷺ في حياته في مكة والمدينة، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق بدون حراسة، شأن كل شخص عادي. عندما يزداد نفوذ الحاكم في الديمقراطية التمثيلية يكون ذلك على حساب الشعب الذي تنازل عن جزء من سلطته للحاكم وأعوانه، وبالتالي

---

(١) البقرة: ١٩٣.

(٢) الأنفال: ٣٩.

يحتاجون إلى حماية أمنية وحراسة بوليسية ظاهرة ومستترة تتساوى، وما أخذوه من حقوق الناس بالرضى أو بالظلم.

إذا وصلنا إلى الحاكم المستبد الذي يسرق حقوق شعبه الاقتصادية والسياسية والإنسانية نجده في حالة رعب من الناس اعترافاً منه بما ارتكبه في حقهم. لا بدّ له من إرهابهم وتعذيبهم ليسكتوا عن المطالبة بحقوقهم خوفاً من هيبة الدولة التي هي هيبة الحاكم الفرد نفسه.

وبزيادة الظلم والتعذيب يزداد خوف الحاكم أكثر وتطارده صرخات ضحاياه، فيحاول التخلص من تلك الكوابيس بالمزيد من إجراءات الأمن فيزداد الإرهاب على المواطنين ويزداد بالتالي هلع الحاكم من انتقام منتظر قادم لا محالة، وهكذا يدور المستبد في حلقة مفرغة متزايدة من الظلم والإرهاب والخوف من الانتقام القادم أو احتمال الثورة بحيث لا تكفي قوى الجيش والبوليس وأجهزة الأمن المختلفة في أن تجعل المستبد المذعور الملعون يحس بالأمن.

ولو أنصف لأعطى الناس حقوقهم بالعدل والمساواة وتمتع معهم بالأمن والحرية، وعاش حياته بين الناس متنعماً بالحب والاحترام أثناء فترة عمله رئيساً، وبعد تركه العمل شأن كل خادم للشعب أو حاكم في نظام الديمقراطية المباشرة حيث لا يمتاز عن غيره من المواطنين في الحراسة والأمن.

ثانياً - في الدولة الدينية في تاريخ المسلمين:

الشورى الإسلامية وحقوق الإنسان ضاعت في الدولة الأموية القائمة على التعسف والقوة الظالمة في سياستها العملية، ثم جاءت الدولة العباسية وقامت بتشريع ذلك الابتعاد عن شرع الله تعالى عن طريقين:

(١) إسناد أحاديث زائفة للنبي ﷺ تشرع ذلك الخروج عن شرع الله

تعالى.

(٢) إلغاء التشريع القرآني الذي يخالفهم بدعوى أنه منسوخ، مع أنّ النسخ في مصطلح القرآن يعني الإثبات والكتابة وليس الحذف والإلغاء.

والأهم من ذلك كله أنّ الدولة العباسية التي شهدت تدوين التراث تجاهلت تدوين السنة الحقيقية للنبي ﷺ في إعداده للأمة وتربيته لأفرادها، والقرآن الكريم أشار إلى مهمة النبي ﷺ في المدينة، ومنها أن يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، أي يسمو بهم، وكان ذلك يتم عن طريقين، الأولى في خطب الجمعة والأخرى في مجالس الشورى، ولقد عاش النبي ﷺ في المدينة عشر سنوات، وخطب أثناءها الجمعة أكثر من خمسمائة مرة، ومع ذلك تجاهل التدوين العباسي تسجيل تلك الخطب. كما أهمل تسجيل ما كان يدور من حوار سياسي ونقاشات في مجالس الشورى، وظلت الآيات التي تحدثت عن هذه المجالس في سورتي النور والمجادلة بدون روايات تاريخية حقيقية تعززها.

والواقع أنّ الدولة الأموية كانت تحكم بقانون القوة، ولم تكن تهتم كثيراً باستصدار فتاوى تبرر ما تقوم به من فظائع بلغت قتل الحسين عليه السلام وآله، وانتهاك حرمة الكعبة والحرم، واستباحة المدينة، ثم قتل مئات الألوف في ولاية الحجاج على العراق.

ولعل خطبة عبد الملك بن مروان سنة (٧٥هـ) أمام أهل المدينة توضح هذه السياسة، إذ قال: «أما بعد، فلست الخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولست الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولست الخليفة المأفون ـ يعني يزيد بن معاوية ـ ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه».

ومن يتأمل هذه الخطبة لا يصدق أنّ حاكماً مسلماً يمكن أن يقولها علناً للمواطنين.

وجاءت الدولة العباسية تكرّر نفس السياسة ولكن تقوم بتبريرها وتشريعها عن طريق فقهائها، ولذلك كان أبو جعفر المنصور يخطب فيعلن في عرفات للناس «إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه».

وهذا هو المبدأ الأساسي للدولة الدينية في الخلافة العباسية والفاطمية والعثمانية، وهو أيضاً نفس المبدأ للإمبراطورية الرومانية المقدسة. أن يحكم الخليفة أو الإمبراطور بالسلطة الإلهية ويملك بها الأرض ومن عليها، ويعاونه في ذلك رجال الدين وفقهاء السلطة، ومن هذه السياسة نبتت تعبيرات مختلفة منها «الراعي والرعية»، و«أهل الحل والعقد».

وتعني أنّ الحاكم المتأله هو الراعي، وأنّ المجتمع مجموعة من القطعان يتصرف فيهم الراعي كيف يشاء باعتبار أنه يملك هذه الرعية ومسؤول عنها أمام الله وحده، ولا يمكن لأحد من القطيع أن يسائل الراعي. ولكن الذي يعاون الراعي في قيادة القطيع هم الملأ الذين يستشيرهم الراعي وهم أهل الحل والعقد.

ومن العبث هنا أن نتساءل عن القسط أو عن الحق في حرية العقيدة والتعبير أو سائر الحقوق النسبية، فقد احتكرها شخص واحد وصار بها مستبداً مدعياً للألوهية.

التناقض بين حقوق المواطنة بين الدولتين:

إذا كان هذا هو حال الأفراد المسلمين داخل الدولة الدينية، فما هو وضع غير المسلمين فيها.. ثم ما هو وضعهم في الدولة الإسلامية.

(١) نبدأ بالدولة الإسلامية: هنا نشير إلى أنّ مصطلح الإيمان والإسلام في التعامل البشري بين أفراد الأمة والمجتمع يعني الأمن والأمان والسلم والسلام. فالمؤمن هو المأمون الجانب مهما كانت عقيدته، والمسلم هو المسالم مهما كان دينه. والجميع مهما اختلفت أديانهم هم مسلمون مؤمنون طالما لا يرفع أحدهم السلاح ضد الآخر، والجميع مهما اختلفت دياناتهم وعقائدهم ومذاهبهم موعدهم أمام الله تعالى يوم القيامة ليفصل بينهم فيما كانوا مختلفين.

وإلى أن يأتي هذا اليوم فالجميع يعيشون في إطار العدل والقسط والمساواة ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات. والآيات في ذلك بالمئات في القرآن، ولكن نستشهد بآية واحدة جاء فيها الإذن بالقتال، ونصت على حيثيات الإذن بالقتال واختتمت بالمقصد التشريعي للقتال وهو حماية دور العبادة من صوامع وبيع وصلوات لليهود والنصارى ومساجد للمسلمين وفيها جميعاً يذكر أصحابها الله تعالى كثيراً[1].

ثم نستشهد بآية أخرى يتحدد فيها مفهوم المواطنة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾[2]، فالطائفة المستضعفة كانوا بني إسرائيل، والقرآن يعتبرهم ضمن أهل مصر مع اختلافهم العرقي والديني. أي أنّ تشريع القرآن يجعل الوطن للجميع بدون أقلية أو أكثرية.

وفي نفس الوقت فإنّ الدين كله لله تعالى بلا كهنوت في الدنيا، ومرجعه لله تعالى يحكم فيه في الآخرة، أي أنّ مقولة «الدين لله والوطن للجميع» هي تشريع قرآني.

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) القصص: ٤.

ولكن ذلك التشريع القرآني خالفته الدولة الأموية حين تعصبت عنصرياً ضد غير العرب من الموالي والأقباط المصريين والأنباط في الشام والبربر في شمال أفريقيا. ثم جاءت الدولة العباسية منذ خلافة المتوكل العباسي وتعصبت ضد غير المسلمين من النصارى واليهود وضد غير السنيين من الشيعة والصوفية. وفرضت زياً معيناً لتحقير أهل الكتاب، وقبل ذلك تم فرض الجزية على غير المسلمين خلافاً للتشريع القرآني واعتبروهم مواطنين درجة ثانية في إطار أنهم أهل الذمة. وتبارى فقهاؤهم في التعقيد الفقهي لذلك التشريع المخالف للقرآن الكريم.

وفي النهاية: نقرر الحقائق التالية:

١- أنّ الدولة الإسلامية ليست يوتوبيا خيالية، بل قد أمكن تأسيسها من لا شيء في عصر النبي محمد ﷺ وصمدت بعدها، وكانت أسباب انهيارها في الفتنة الكبرى حروب طوال، أي لم تسقط بهدوء، ولكن قاومت بشراسة حتى أنّ المقاومة استطاعت إنهاك الدولة الأموية وإسقاطها في عنفوان شبابها.

ثم جاءت الدولة العباسية بعد أن خدعت المسلمين بشعار «الرضى من آل محمد»، وزعموا إعادة الدولة الإسلامية للنبي محمد ﷺ. ولكنهم ما لبثوا أن أقاموا دولة تتمسح بالإسلام وتناقضه في نفس الوقت.

٢- رغم التحريف وإرساء قواعد تشريعية للدولة الدينية في العصر العباسي فإن حقائق القرآن المنزه عن التحريف لا تزال تحتفظ بأسس الدولة الإسلامية وتناقضها مع الدولة الدينية التي عرفها المسلمون والغرب على السواء.

٣- «الإسلام هو الحل» شعار يرفعه الإخوان المسلمون لخداع الناس واتخاذ الإسلام مطية يصلون بها للسلطة. ونحن نقول «الإسلام هو الحل»

فعلاً في تعرية الإخوان المسلمين واثبات عدائهم للإسلام الذي يتمسحون به. الإخوان المسلمون هم ثقافة دينية تنتمي للعصور الوسطى المظلمة بتعصبها وتطرفها واستبدادها، وهم أكبر من أن يكونوا مجرد تنظيمات سرية وعلنية.

أي أننا لا يمكن أن نواجههم إلا بثقافة إسلامية مستنيرة من داخل الإسلام. ومن حسن الحظ أن الإسلام يناقضهم على طول الخط عقيدياً وتشريعياً وسلوكياً وأخلاقياً وثقافياً.

ومن هنا نقول أن «الإسلام هو الحل» في مواجهة الإخوان المسلمين. لا بد من مواجهتهم بالإسلام.

٤- أنّ الدولة العلمانية الحديثة هي الأقرب للدولة الإسلامية، ولكن أقرب النظم الحديثة للدولة الإسلامية هو نظام الديمقراطية المباشرة في الاتحاد السويسري. وإذا كانت الدولة الإسلامية في عصر النبي محمد ﷺ قد سقطت لأنها كانت ضد المناخ السائد في العصور الوسطى فإنّ مبادئها تتسق مع المناخ السائد في عصرنا، وهي فعلاً موجودة على أرض الواقع في الاتحاد السويسري، وبصورة أقل في الديمقراطيات الغربية النيابية التمثيلية.

٥- إنّ نظام العقوبات أو ما يعرف بالحدود في الدولة الإسلامية جرى تحريفه في التطبيق التاريخي للمسلمين كما جرى تدوين ذلك التحريف في تشريعات الفقه التراثي.

وهذا يستلزم بحثاً خاصاً في إطار التشريع القرآني واختلافه عن تشريع الدولة الدينية وتراثها.

الملحق الرابع

الإخوان و الاستبداد و الديمقراطية

التحليل السياسي للحركة الدينية يكون قاصراً حين لا ينفذ إلى الجذور، فالحركات الدينية المنتمية للإسلام كلها حركات تراثية ولابد في بحثها من العودة إلى الجذور التاريخية والعقيدية.

وعموماً فإنّ المسلمين في عصرنا ينقسمون إلى ثلاثة تيارات أساسية:

السنة والشيعة والصوفية.

الصوفية أكثرهم اعتقاداً بالخرافات ولكنهم أكثرهم ميلاً للسلم والاعتراف بالآخر وحرية العقيدة.

والشيعة أقلّ عنفاً من السنة والأكثر في التقية والدهاء، والسنة هي الأكثر عنفاً وتعصباً.

وينقسم السنة إلى أربع مدارس، الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة.

والحنابلة أشدّ المدارس السنية تعصباً، وأفرز الحنابلة تيار ابن تيمية وهو الأكثر تعصباً بين الحنابلة.

ثم في تاريخنا الحديث نشأت الوهابية وهي أكثر خط متشدّد داخل الخط التيمي «نسبة إلى ابن تيمية» الحنبلي السني.

وبتحالف ابن عبد الوهاب مع ابن سعود أقيمت الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥م) التي ارتكبت مذابح في الجزيرة العربية والشام والعراق حتى قضى عليها محمد علي (١٨١٨م)، ثم أعيد تأسيسها لعدة عقود في القرن التاسع عشر وسقطت ثانية، ثم في القرن العشرين بدأ عبد العزيز آل سعود تأسيسها للمرة الثالثة فيما بين (١٩٢٠-١٩٢٦م)، وأعطاها اسم السعودية، اسم أسرته سنة (١٩٣٢م).

والذي ساعد عبد العزيز في إنشاء هذه الدولة كان «الإخوان»، وهم أعراب متشددون أرضعهم الفكر الحنبلي الوهابي على أساس أنه الإسلام الحقيقي الذي ينبغي فرضه بالقوة، وأنّ المسلمين الآخرين هم مشركون، وأن النصارى واليهود كفار، وينبغي التعامل معهم بالسيف طبقاً لتعليمات محمد بن عبد الوهاب في (رسائله) الكثيرة.

اختلف الإخوان مع سيدهم عبد العزيز حين رأوه يتعامل مع المصريين «الذين هم مشركون حسب التوصيف الوهابي»، وحين رأوه يتعامل مع الإنجليز «الكفار»، وحدثت حروب بين الإخوان وعبد العزيز فقضى عليهم، إلا أنه بدلاً من إصلاح الفكر الوهابي الذي تعلمه الإخوان «إخوان عبد العزيز» فإنه صدّر هذا الفكر إلى مصر، والشرق الأوسط، والهند. عن طريق عميله الشيخ رشيد رضا وبتخطيط من مستشاره المصري حافظ وهبة.

واستطاع عبد العزيز أن يحول الجمعية الشرعية في مصر من توجهها الصوفي المسالم إلى التوجه السلفي المتشدد سنة (١٩٢٧م)، وفي نفس العام الذي يليه، أنشأ عبد العزيز جمعية وهابية بحتة، هي أنصار السنة المحمدية، التي تزعمها الشيخ حامد الفقي، وأنشأ جمعية أخرى حركية، شبه عسكرية، هي جمعية الشبان المسلمين، وكان حسن البنا أشهر

المنتمين إليها، فتم تكليفه عن طريق رشيد رضا لإنشاء جماعة الإخوان المسلمين سنة (١٩٢٨م) كجماعة سياسية (عسكرية) تريد الوصول إلى الحكم وإقامة الخلافة.

وبنفس المنوال أنشأ عبد العزيز التيار السلفي داخل الهند بمدارسه وكوادره مستغلاً الشعور العدائي بين المسلمين الهنود والهندوس، مما ساعد على تقسيم الهند وإقامة باكستان كإحدى الأخطاء الكبرى في القرن العشرين.

نعود إلى مصر والإخوان «المصريين» الذين أنشئوا تحت نفس اسم الإخوان السعوديين من قبل، ونرى حسن البنا قد استغل تقاصر الحكومات في عصره عن الإصلاح الاجتماعي ووجود شباب ناقم مع ليبرالية سياسية، استغل ذلك كله في ما بين (١٩٢٨ - ١٩٤٨م) في أن ينشئ خمسين ألف فرع للإخوان في ربوع مصر، وأن ينشئ جيشاً سرياً «التنظيم السري»، وأن ينشئ حركة الإخوان المسلمين العالمية وفروعاً لها في البلاد العربية أو الإسلامية وأن ينجح في قلب الحكم في اليمن «ثورة الميثاق» مما نبه الدولة المصرية إلى خطورته، فاغتالوه، وكان قبلها قد اغتال اثنين من رؤساء الوزارات المصرية وأحد القضاة، وكان قد نجح في التسلل إلى الجيش والتحالف مع الضباط الأحرار.

وقامت الثورة المصرية بتأييد معلن من الإخوان، إذ كانوا جناحها المدني، ثم حدث الخلاف بين الإخوان وعبد الناصر، فهرب معظمهم إلى السعودية موطنهم الروحي، ثم عادوا في عصر السادات، حيث تحكموا في الثقافة والإعلام والتعليم والأزهر، فتحولت مصر في خلال القرن العشرين من تدينها المشهور بتسامحه وتصوفه إلى تدين آخر، أكثره سني متعصب حنبلي.

وردّ الإخوان الجميل للسادات باغتياله، حيث أنّ التنظيمات الكثيرة التي تفرّعت كلها تنتمي في الأصل إلى الإخوان من الجهاد والجماعة الإسلامية والتحرير الإخواني.. إلخ.

وهذا مجرد توزيع أدوار بين الشيوخ المهادنين: يصدرون الفتاوى ويتحكمون في الحياة العقلية والدينية والفكرية، بينما الشباب يتولى التنفيذ، ومقتل فرج فودة أكبر دليل.

هذه هي طبيعة الحركة الدينية السياسية في مصر، والعالم العربي، وكلها نتاج للدولة السعودية وتدينها الحنبلي الوهابي والذي ينتج عنه عادة إقصاء الطرف الآخر، إما بحد الردة أو تحت مسمى الجهاد.

ولا يمكن في ظل الوهابية الحنبلية أن تقام دولة إلا كالدولة السعودية، أي أسرة تملك الأرض ومن عليها وتعطي الدولة اسمها، كما يطلق أحدنا اسمه على ما يملكه من عقار وممتلكات.

وبالطبع هناك أنواع أخرى من التدين في العالم الإسلامي، فتركيا مثلاً تدينها صوفي، لذا فالحركة السياسية الدينية هناك متأثرة بالتدين الصوفي، لذا تعترف بالآخر وبتداول السلطة، وهكذا تجد التدين في إندونيسيا وفي معظم تجمعات المسلمين في شرق وجنوب شرق آسيا، على أنّ النفوذ السعودي في عصر الحقبة النفطية استطاع التسلل إلى بعض التجمعات الإسلامية المشهورة بتسامحها، مثل إندونيسيا والفلبين والبلقان، وأنشأت مدارس لنشر الفكر الوهابي، وخلقت منظمات وهابية إرهابية، إلا أن ذلك يعتبر نشازاً وسط ثقافة التسامح الصوفية لدى المسلمين هناك.

وهكذا فإنه لكي نفهم ونحلل ما يسمى بالحركة الإسلامية لا يكفي أن ننظر إليها نظرة فوقية وإنما لابد أن نغوص في جذورها التاريخية والدينية، وهذا هو المنهج الذي أتبعه، فدائماً تحمل دراساتي تلك العبارة «دراسة

أصولية تاريخية» إذ لا يمكن الفصل بين ما يقوله زعماء وقادة التطرف الآن، سواء كانوا حركيين «ابن لادن، أيمن الظواهري، مصعب الزرقاوي»، أو كانوا منظرين «المسعري، سعد الفقيه، القرضاوي، عبد العظيم المطعني، عبد الصبور شاهين، صالح الفوزان».

وعموماً لا بدّ من إرساء ثقافة الديمقراطية في التعليم والإعلام، وفي البيت والأسرة والمدرسة والمسجد والنادي والمجتمع.

و لا بدّ من التأكيد على اثنين من الحقوق الأساسية للإنسان في القرآن الكريم، وهما العدل والحرية المطلقة في العقيدة والفكر. وقد يكون سهلاً إرساء ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان في المجتمعات المسلمة الصوفية ولكنه عسير في تلك المجتمعات التي يسيطر عليها الفكر الحنبلي الوهابي.

إلا أنه لا بدّ من الجهاد لتغيير تلك الثقافة وإحلال التسامح والليبرالية مكانها حتى يمكن إنجاح الديمقراطية، وإلا وثب الحنابلة المخادعون إلى السلطة بالديمقراطية لينقلبوا عليها باسم الشرع «الوهابي».

ومن هنا بادر «مركز ابن خلدون» في أواخر التسعينيات لطرح مشروع إصلاح التعليم بناء على مقالة لي كانت قد ظهرت في (روز اليوسف) قبلها بسنتين تدعو لإصلاح التعليم، حتى لا نمرّ بتجربة الجزائر وحركة التعريب فيها، التي قام بها الإخوان بالجزائر فأنشأوا جيلاً متعصباً دموياً لم يجد في الجزائريين نصرانياً ولا يهودياً، وإنما وجدهم جميعاً مسلمين سنيين، فاتهمهم بالكفر وقتل الآلاف منهم. نجح مشروع التعليم الذي تبناه «مركز ابن خلدون»، والذي قمت فيه بإعداد مناهج دينية بديلة، في إثارة المشكلة وإظهارها للعيان، وبعدها أصبح مطلب إصلاح التعليم الديني شعاراً تتمسك به أمريكا وأوروبا بعد ١١ سبتمبر.

وإصلاح التعليم يعني أنّ هناك جذوراً تاريخية ودينية في مسألة الحركة الإسلامية المعاصرة لابد من بحثها لتوضيح توجهات هذه الحركة، هل هي صوفية مسالمة تعترف بالآخر، أم هي إيرانية شيعية تحترف الدهاء والتقية، وتتسلل إلى الآخرين، أم هي وهابية حنبلية تيمية لا ترى إلا نفسها وتصادر حق الآخرين في الحياة والاعتقاد.

ولا بدّ من الإصلاح التشريعي لإرساء إطار قانوني شرعي تجري في إطاره عملية الإصلاح السياسي والديني والتعليمي والإعلامي والاقتصادي لتمهيد الطريق للديمقراطية. عندها يظهر التيار السلفي على حقيقته المعادية للإسلام والإنسان، ويعود من حيث أتى؛ يعود إلى متحف التاريخ.

هذا كله كلام جميل يدخل في إطار التمني والنيات الحسنة والخيال الفسيح. لأنّ السؤال الهام هو كيف؟؟؟ كيف يمكن إقامة الإصلاح وترسيخه على أرض الواقع؟؟

المرشحون عادة للإصلاح إما القوى الداخلية ـ إصلاح من الداخل ـ أو القوة الخارجية «أمريكا» بإيجاز.

الإصلاح من الخارج يأتي عادة من المعارضة، والمعارضة التي نحظى بها ونفاخر بها العالم كله علاقتها بالغة السوء بالديمقراطية. يسري ذلك على الكيانات الحزبية القائمة في الساحة والتي سمح بها النظام لتعطيه واجهة ديمقراطية زائفة وقد تحدد لها سقف لا تتعداه فظلت مثل نبات الزينة مجرد زينة لا حياة فيها لذا تجد فيها مساوئ الحكم المستبد ومفاسده، وهي لم تصل بعد للسلطة.. فكيف إذا وصلت لها وهي في مقاعدها ومكاتبها البعيدة عن نبض الشارع والاحتكاك به؟ في مقابل هذه المعارضة الورقية الضعيفة تبدو المعارضة القوية التي يقال أنها تحتل الشارع وتؤثر

فيه وهي التنظيمات السلفية السياسية والإخوان المسلمون.

هنا قد يقال أنّ الإخوان معتدلون بريئون من العنف، وقد قبلوا بالاختيار الديمقراطي، إذن هم الذين يقع عليهم العبء في الإصلاح الديمقراطي وهم البديل الليبرالي للحكم العسكري المستبد.

وقد يحتاج الإخوان إلى الديمقراطية كوسيلة للوصول للحكم ولكن بناءهم العقيدي والأيديولوجي يحتم عليهم الانقضاض عليها عند أول فرصة. ابن لادن والزرقاوي وغيرهم من التنظيمات السرية والإرهابية كانوا واضحين في تكفير الديمقراطية واعتبارها خروجاً على الحاكمية، وهي الدين الأصلي للوهابية والإخوان المسلمين، إلا أنّ الإخوان المسلمين بقبول الديمقراطية إنما يخادعون الله تعالى والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وهم لا يشعرون.

الخداع وسياسة الوجهين هي سياسة الإخوان منذ عهد حسن البنا في وقت ظهورهم العلني الشرعي.

حسن البنا كان يجمع داخل التنظيم الإخواني كل المذاهب المتعارضة والمتعادية من الصوفية إلى السنية الحنبلية الوهابية، من شيوخ الأزهر والفقهاء إلى شيوخ الطرق الصوفية إلى شباب الشبان المسلمين وشيوخ الجمعية الشرعية.

ونجح في تأجيل الخلافات العقيدية والمذهبية والاجتماعية إلى مرحلة الوصول للسلطة، وبينما كان يخاطب الآخرين بوجهه السلمي كان أعوانه في التنظيم السري يقتلون خصومه من السياسيين، وإذا افتضح أمرهم كان يسارع للتبرؤ من أتباعه قائلاً: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين»!! كان في الظاهر منسجماً مع النظام الليبرالي الديمقراطي في مصر وهو النظام الذي سمح له بالانتشار لينشئ خمسين ألف شعبة في العمق المصري وأن يتحرك

بدعوته كيف شاء، يعقد الاتفاقات العلنية والسرية من الدولة السعودية إلى القيادة البريطانية، ومشهورة المساعدة النقدية التي أعطوها له.

ولم يكتف بتلك المساحة من الحرية فتآمر على النظام الليبرالي بمؤامرات الاغتيال فردّ عليه النظام بالمثل واغتاله.

ثم تآمر أتباعه على النظام كله وتحالفوا مع شباب الضباط من العسكر فكان الانقلاب العسكري الذي حمل لقب الثورة سنة (١٩٥٢م)، ثم تآمروا على الحركة التي ساعدوا في إقامتها فكانت محنتهم التي تعلموا منها فنون التقية والخداع أكثر وأكثر.

الإخوان سعداء بالنظم الديكتاتورية أكثر من أيّ احتمال للإصلاح الديمقراطي. الإصلاح الديمقراطي يلغي وجودهم ويقيم الليبرالية الفكرية التي تؤكّد حرية الفكر والمعتقد. وحرية الفكر وحدها هي الكفيلة بتعرية حقيقة الإخوان وفكرهم المعادي للإسلام والإنسان.

أما في وجود الديكتاتورية فهم الضحايا، والديكتاتور يزايد عليهم في الدين ـ وهو بجهله لا يعرف إلا التدين الواقعي المخالف لحقائق الإسلام والذي تنافح عنه وتحميه المؤسسات الرسمية للحاكم نفسه ـ، وبذلك تنتشر ثقافة الوهابية الإخوانية السنية التي عن طريق قطار النفط السريع أتيح لها أن ترفع لواء الإسلام زوراً وبهتاناً.

والإخوان سعداء بهذا التدين الزائف المنسوب زوراً للإسلام ويأملون بالنفس الطويل أن يؤول إليهم الحكم في النهاية بدون مشقة بعد أن يسقط الديكتاتور، وقد قام بتفريغ البلاد من كل القوى الحية.

وفي الخراب المتبقي يتاح للإخوان الحكم.

ليس ذلك كلاماً نظرياً بل هو واقع محزن لدول تفككت بعد أن أمعن

الحكم الديكتاتوري في خرابها، وقتل روح النخوة والنضال والكرامة لأبنائها، وشرد وصفّى وقتل وحيد وغيب الطبقة الوسطى والنخبة المثقفة والقطاعات الحية الواعية من المجتمع، وبعدها لا يبقى من المجتمع إلا أسوأ من فيه ممن لا يعرفون من الحوار إلا لغة الديناميت والقتل للمخالف في الرأي لأنهم ليسوا أصحاب رأي، ولا يعرفون النقاش إلا بالبندقية فيتحوّل الوطن على أيديهم بعد غياب الديكتاتور إلى ساحة حرب أهلية تدعو المجتمع الدولي للتدخل والاحتلال لكي يؤكد لنا للمرة الألف أننا عاجزون عن حكم أنفسنا بأنفسنا، وأننا أخطأنا حين قاومنا الاستعمار وجئنا باستعمار أفظع لأنه استعمار محلي بلدي متخلف دمر الأرض وما عليها ومن عليها.

وفعلاً فقد أخطأنا حين نادينا بالجلاء دون المناداة بالدستور الديمقراطي، فكانت النتيجة أننا وقعنا بين نابي العسكر والإخوان.

هذا في السلطة وذاك يترقبها.

وبين هذا وذاك ضاع منا الدين «الإسلام»، وضاع الوطن، وضاعت أواصر القربى «العروبة».

ولم يبق لدينا ما نفقده لذلك يسارع شبابنا إلى تفجير نفسه أملاً في وهم بعد أن فقد أحلامه في هذه الدنيا.

الشباب في كل أنحاء العالم هم عنوان المستقبل وعنوان الإقبال على الدنيا. أما عندنا ففي سبيل شخص واحد هو الديكتاتور أو في سبيل أسرة حاكمة واحدة يضيع شبابنا ـ وهم أكثر شرائح المجتمع عدداً ـ يضيعون بين أوهام المخدرات العادية أو المخدرات التراثية، ويضيع بالموت مفجراً نفسه أو بالموت البطيء، أو ينسحب إلى الماضي التراثي تاركاً الحاضر والمستقبل. يتلاعب بعقله شيوخ التطرف ويصادر الديكتاتور أحلامه بينما

ينتظر الإخوان على مهل سقوط الوطن ضحية ليرثوه خرائب.

خذوها مني كلمة: الديكتاتور خائن لوطنه ولشعبه مهما كان حسن النية. وهذه حقيقة تاريخية وإنسانية....

والمتلاعب بدين الله تعالى يشتري بآيات الله تعالى هو خصم لله تعالى يوم القيامة. وهذه حقيقة قرآنية...

لقد آن الأوان لنا أن نتخلص منهما معاً بالديمقراطية وبطريقة سلمية تتيح للحاكم أن يكون خادماً حقيقياً للشعب يخدمه فترة من الوقت ثم يستريح ليعيش تحوطه رعاية الناس وحبهم.

أليس هذا أفضل من أن يضطر المستبد للتمسك بالحكم إلى آخر نفس في حياته ليحمي نفسه وأسرته وأمواله من لحظة العقاب إذا زال عنه سلطانه؟ نحن نعرف ما يعانيه كل مستبد ظالم تطارده أشباح ضحاياه ويحاول ما أمكنه الهروب من ساعة العقاب، ولذلك يظل في أواخر حكمه يجري هنا وهناك، ويسلك كل طريق يبقيه في منصبه طالما ظلّ حياً أو يورث ابنه السلطة لينجو من العقاب. يظل يتقافز هنا وهناك معطياً للآخرين امتصاصه للنهاية، ثم يلقون به كالليمونة التي تم عصرها. يتقافز المستبد في نهاية حكمه ليحمي نفسه في كل اتجاه عدا الاتجاه الوحيد الذي فيه مصلحته ونجاته، وهو الشعب. الشعب هو الذي يمكنه أن يعفو عن المستبد إذا ختم المستبد حياته وحكمه بالإصلاح.

ولكن من الصعب على المستبد أن يفعل ذلك لأنه تعود التعالي على الناس واحتقارهم بنفس تعوده استجداء الغرب، ولأنه لا يمكن للمفسد أن يكون مصلحاً خصوصاً إذا عاش معظم حياته في الفساد والإفساد.. لا يتبقى إلا التدخل الأجنبي الأمريكي.

هل لديكم حل آخر؟؟؟

الملحق الخامس

في إصلاح الإخوان المسلمين في مصر

١ ـ يعاني الإخوان المسلمون من أزمة تتلخص في الضغط الأمني عليهم في مصر مع عدم الاعتراف الأمريكي بهم مع أنهم أكبر قوة شعبية معارضة في مصر والمؤهلة أكثر من غيرها للوصول للسلطة بعد حكم عسكري وصل بمصر إلى الحضيض.

وتعاني السياسة الأمريكية نحو مصر من الحيرة، فهي تتردد في قبول توريث الحكم لنجل الرئيس مبارك لأنّ ذلك يدمر مصداقيتها في الدعوة للإصلاح الديمقراطي، وفي نفس الوقت فإنها لا ترغب في صعود الإخوان إلى المشاركة السياسية ووصولهم إلى السلطة.

لا أعتقد أنّ الرئيس مبارك يرضى بأن يجعل ابنه حاكماً بعده تاركاً له تركة ثقيلة يعجز عن إصلاحها بعد تخريب لمصر استمر حوالي ثلاثة عقود. إنّ غياب مبارك عن الساحة سيخلف ثورة شعبية هائلة ستطيح بابنه إذا تولى السلطة بعده، ولا بدّ لمن يتولّى الحكم أن يفتح كل الملفات المسكوت عنها، وبالتالي فلا مجال لآل مبارك إلا الهجرة ناجين بحياتهم وأموالهم. وعليه فإنّ إثارة قضية التوريث في مصر ـ بين النفي والإثبات ـ يقصد بها مبارك إلهاء الناس ليظل محتفظاً بالسلطة إلى آخر مدى يستطيع التماسك فيه صحياً وسياسياً، ويستطيع التمهيد لنفسه وأسرته ملجأ آمناً في الخارج.

وهكذا فإنّ كل يوم يمر يضيف إلى رصيد مبارك بينما يزيد في تدمير مصر اقتصادياً وسياسياً. وقد يسفر الحال عن انفجار قادم في مصر بدأت نذره تتجمع في الأفق.

وهكذا فإنها ليست فقط أزمة الإخوان إنما هي في الأساس أزمة مصر حالياً وفي المستقبل القريب الوشيك. وللخروج من هذه الأزمة لا بد من علاج وضعية الإخوان المسلمين باعتبارهم القوة الشعبية الوحيدة التي تستطيع سلمياً ـ بعد الاعتراف بها سياسياً ـ إنهاء الحكم العسكري في مصر واستبداله بحكم مدني. بل وأكثر من هذا تستطيع ترشيد الحركات الأصولية الأخرى في الشرق الأوسط.

وعلاج وضعية الإخوان المسلمين يكمن في أن يكونوا حزباً مدنياً يتبنى نفس الأطروحات المدنية الديمقراطية التي تؤكد حقوق الإنسان وحقوق المواطنة ولكن بمرجعية إسلامية أصيلة.

والدكتور سعد الدين إبراهيم ـ وهو أكبر دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني في مصر والشرق الأوسط ـ يجاهد لإقناع الإدارة الأمريكية وفصائل أخرى مصرية من أجل إشراك الإخوان في الحياة الديمقراطية، ولكن لا تزال لهذه الأطراف الأمريكية والمصرية شكوكها وارتيابها من الإخوان. هذه الشكوك لها ما يبررها في تاريخ الإخوان وفي تراثهم الفقهي السلفي الذي لا يزالون يتمسكون به ولا يقومون بعملية نقدية له ليتوافق مع العصر ومع الإسلام.

٢ ـ ليس من الإسلام أو من الديمقراطية أن يستعلي الإخوان المسلمون على الناس أو أن يعطوا لأنفسهم هداية الناس وحكمهم باسم الله تعالى، فهذا ما لم يعطه الله تعالى للنبي محمد ﷺ حين كان حاكماً في المدينة، بل إنه من الإسلام والديمقراطية أن يكون عليهم تقديم إجابات واضحة معلنة للناس طالما يسعون لحكم الناس. من حقهم السعي للحكم

كالآخرين ولكن من حق الناس عليهم وعلى الآخرين أن يعرفوا بالتحديد وبالتفصيل والوضوح برنامجهم السياسي ومبادئهم السياسية وماذا سيفعلون، من حق الناس أن يأمنوا على حرياتهم الدينية والاجتماعية إذا ما أوصلوا الإخوان للحكم، ومن حق الناس أن يعرفوا كلّ ما يبدد شكوكهم التي نبتت بسبب تاريخ الإخوان وبسبب التراث السني الذي يتمسكون به والذي يجري تطبيقه بالحديد والنار حول مصر والذي مارسته جماعات إرهابية في مصر تنتمي لنفس الفكر ونشأت وترعرعت على منهج الإخوان.

المعترضون على الإخوان المسلمين لديهم مخاوف مشروعة وعندهم أسئلة جادة لا بدّ للإخوان من الإجابة عليها علنياً، وفي وثيقة رسمية تضع كل النقاط فوق كل الحروف ولا تدع فرصة لأيّ تشكيك أو ارتياب.

ثم يكون الجيش المصري ـ في حالة تطبيق الإصلاح السياسي ـ هو الحارس للديمقراطية وتداول السلطة.

إذا بدّد الإخوان كل الشكوك والمخاوف فإنهم يسهلون مهمة الدكتور سعد الدين إبراهيم في إقناع الإدارة الأمريكية، إذ يكون صعباً على تلك الإدارة التنكر للوضع الجديد الذي وصل إليه الإخوان.

إذا رفض الإخوان هذا الإصلاح الذاتي فهم الذين يضعون المتاريس أمام جهاد الدكتور سعد الدين إبراهيم في الدفاع عنهم.

لا يمكن لمعارضي الإخوان المسلمين ـ ومنهم كاتب هذه السطور ـ أن يقبلوهم طالما يتمسكون بما قاله السيدان «سيد قطب» عن الحاكمية أو الثيوقراطية الدينية و«سيد سابق» عن أهل الذمة والجزية على الأقباط، والرجم، وقتل المرتد بعد الاستتابة، وقتل الزنديق عند العثور عليه وبلا محاكمة وحتى لو تاب. والزنديق هو المسلم المؤمن بالقرآن والسنة والأحاديث ولكن يخالفهم في بعض آرائهم.

وما قاله السيدان (قطب وسابق)، وغيرهم يخالف القرآن الكريم وهو

المرجعية الإسلامية الوحيدة التي لا شك فيها، بالإضافة إلى أنه يخالف مواثيق حقوق الإنسان وهي المرجعية الإنسانية لعصرنا.

وإذن لخروج الإخوان من هذه الوضعية ولكي يقبلهم الآخرون ولكي تنتهي حالة الاغتراب والاضطهاد التي دخلوا فيها منذ (١٩٤٨م) لا بد لهم من عبور هذه الفجوة بإصلاح فكري إسلامي.

وطالما يقولون في شعاراتهم المعلنة «القرآن دستورنا» عليهم أن يحتكموا إلى الدستور القرآني في تطوير دعوتهم السياسية إلى الأفضل.

٣ ـ على الإخوان المسلمين في مصر الاختيار بين واحد من اثنين:

(أ) - إما قوله تعالى في تشريع القتال للدفاع فقط ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1]. وقوله تعالى في الحرية الدينية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2].

وإما الأحاديث الكاذبة الدموية مثل: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا..».

(ب) - إما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفهومه القرآني (فالمعروف هو القيم العليا المتعارف عليها مثل الصدق والأمانة والرحمة والتسامح والعدل والسلام والحرية.. إلخ)، والأمر بها هو تواصٍ وتناصح بين الناس جميعاً وليس لفئة معينة، وهو مجرد أمر قولي ونهي قولي، وليس استطالة على الناس وتدخلاً في حريتهم الشخصية...

وإما الحديث الكاذب القائل: «من رأى منكم منكراً فليغيره»، والذي أثبتنا من قبل بقواعد الجرح والتعديل والبحث التاريخي أنه تم وضعه وتأليفه في عصر الخليفة الواثق العباسي إبان اضطهاد ابن حنبل في

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

موضوع خلق القرآن.

(ج) - إما أن يكون خاتم النبيين محمد ﷺ مبعوثاً رحمة للعالمين كما أكّد ربّ العزة في القرآن الكريم[1].

وإما أن يقفوا مع الفكر الدموي الذي أنتج ابن لادن والذي شوّه الإسلام وصورة رسول الإسلام ﷺ.

(د) - إما أن يقفوا مع العدل المطلق الذي حفلت به آيات القرآن الكريم في التعامل مع الأقارب والأعداء ومع الناس جميعاً.

وإما بمنهج الظلم الذي مارسه العرب والمسلمون حين حكموا وسادوا في العصور الوسطى و اضطهدوا غير المسلمين وغير العرب في فترات مختلفة من تاريخهم الممتد والطويل.

(هـ) - إما أن يقفوا مع المبدأ القرآني «الدين لله تعالى» يحكم فيه يوم القيامة ولذلك فلا بدّ من تقرير الحرية الدينية المطلقة «والوطن للجميع» على قاعدة المساواة والعدل حيث لا تميز لأحد على أحد بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو المذهب أو المال أو الذكورة أو الجاه والمنصب، وإنما على حسب العطاء و العمل الصالح النافع للمجتمع.

وإما احتكار الدين والوطن لطائفة تستعلي على الناس باسم الله فتظلم الله تعالى الذي أكّد أنه لا يحب الظالمين ولا يريد ظلماً للعالمين.

(و) إما أن ينصفوا المرأة ويسيروا مع حقوقها بالعدل الذي قرره الله تعالى لها.

وإما أن يقولوا ما قاله البخاري عنها أنها ناقصة عقل ودين، وأنها مخلوقة من ضلع أعوج، وأنها شؤم.. إلخ.

(ز) - إما أن يؤمنوا بالشورى الإسلامية كما جاءت في القرآن بمفهوم الديمقراطية المباشرة، وأنها جزء من عقيدة الإسلام، وجزء من فرائضه

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

التعبدية ومن ثقافته العقلية والسلوكية كما أوضحنا في كتابات منشورة باللغتين العربية والانجليزية.

وإمّا أن يؤمنوا بالحاكمية وهي أرذل أنواع الديكتاتورية الدينية وأفظع الظلم لله تعالى وللناس.

(ح) - إما أن يؤمنوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، وما يعنيه هذا من مساواة بين البشر وصلة قرابة بينهم لانتمائهم لأب واحد وأم واحدة، وأن الله تعالى خلق البشر مختلفين ليتعارفوا سلمياً وليس ليتحاربوا.

وإما أن يظلوا على عقيدة تقسيم العالم إلى معسكرين متقاتلين.

٤ ـ لقد كتبت قبل ذلك مستبعداً أن يقبل الإخوان الديمقراطية وتداول السلطة لأنهم ليسوا مؤهلين سياسياً للمساءلة أمام البرلمان، ولأنهم يعتبرون أنهم أعلى من أن يسائلهم أحد باعتبار أنهم المختارون من الله تعالى لتطبيق شرعه على الغير، ولذا فهم لا يريدون تولي حكم مصر الآن بالطريق الديمقراطي وإنما يفضلون الانتظار إلى أن يصلوا إلى «التمكين» أي بـ«تربية» الشعب المصري على الطاعة العمياء تمهيداً للقبول بمبدأ «الحاكمية» أي الإيمان بهم مبعوثين من الله تعالى لحكم الناس وأنهم مسؤولون أمامه تعالى عن تنفيذ شرعه.

والشرع عندهم هو الأحاديث الضالة والفقه الحنبلي، أي كلام بشر انتهى عمره الافتراضي ولم يكن صالحاً لعصره فكيف يكون صالحاً لعصرنا. لا زلت عند رأيي طبقاً لحال الإخوان الآن فليس لهم اجتهاد في استخلاص صيغة تشريعية من القرآن توافق العصر، ولا يدور في أدبياتهم إلا إشارات عن الحاكمية والتمكين والتربية.

---

[1] الحجرات: ١٣.

ولا يزال ما قاله حسن البنا وسيد قطب والقرضاوي والمودودي هو الحجة لديهم.

وبالتالي فإنّ ما كتبه السيدان «قطب» و«سابق» هو المرجعية السياسية والفقهية لديهم. وما يقوله وما يفعله ابن لادن هو التطبيق الحرفي لتلك المرجعية السياسية والفقهية.

إنّ الذي يحتم الدعوة لإصلاحهم هو الحال الذي وصلت إليه مصر وهي على وشك انفجار قادم إن لم نسارع بالإصلاح، ولذا فإنّ إصلاح الإخوان لنفسهم جزء جوهري لإنقاذ مصر، وهو أيضاً طوق النجاة لهم.

٥ ـ أتمنى أن يبادر الإخوان المسلمون المصريون بعقد مؤتمر موسع ليناقش في ضوء القرآن الكريم ومن الناحية الفقهية الإسلامية سائر النقاط المختلف عليها أصولياً وفقهياً مثل «الجهاد، الولاء والبراء، التسامح الديني» و«حقوق المرأة»، «الجزية وأهل الذمة، حقوق المواطنة، حق بناء الكنائس، الدين لله والوطن للجميع...»، «الديمقراطية، الدولة الإسلامية المدنية العلمانية»، و«تطبيق الشريعة الآن، النسخ، الرجم، وقتل المرتد والزنديق وقتل تارك الصلاة، وعقوبة شرب الخمر»، «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحرية الشخصية وحرية الفكر والمعتقد»، «الشفافية في العمل السياسي وتحريم العمل السري ومنع الاستخدام السياسي للدين حفظاً لقداسة الإسلام». وأن يخرج المؤتمر ببيان يؤكد على علمانية الدولة الإسلامية وديمقراطيتها.

إذا رفض الإخوان هذا الاقتراح وإذا تمسكوا بأفكارهم القديمة فهم مسؤولون عما يحدث لهم من استمرار الاضطهاد والاستبعاد دون أن يرثي لهم أحد، بل سيفقدون المتعاطفين معهم وسيكون مصيرهم التجاهل والنسيان طالما لا يتكلمون بلغة العصر. إذ لا بد في عصرنا الجديد من تغيير الأفكار السلفية القديمة. خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من

سبتمبر ووجود مسلمين أصوليين يرفضون السلفية ويواجهونها من داخل الإسلام. وهم يتزايد عددهم ويتعاظم تأثيرهم ومعهم المنطق والحجة القرآنية ومعهم أيضاً المستقبل وثقافة العصر وأدواته.

٦ ـ يعلن الإخوان شعار «القرآن دستورنا»، وإذن فلا بد لهم من الاحتكام إلى القرآن فيما ورثوه من معتقدات وشرائع تناقض القرآن.

يؤمن الإخوان بأنّ الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وإذن فلماذا يقزمون ويحصرون الإسلام في تشريعات بشرية تنتمي للعصور الوسطى وتتناقض مع القرآن الكريم، إذا قرأنا القرآن الكريم بمصطلحاته هو بمفاهيمه هو وليس بمصطلحات التراث السني وأحاديثه ومروياته.

يعرف الإخوان أنّ الدعوة الإسلامية في جوهرها دعوة إصلاحية، وأنّ الإصلاح هو مهمة كل نبي طبقاً لما جاء في القرآن الكريم. فلماذا يتقاعس الإخوان عن الإصلاح، وإصلاح أنفسهم ومنهجهم هو البداية؟

٧ ـ إصلاح الإخوان ضرورة لإنقاذ أنفسهم وإنقاذ مصر وهو أقصر طريق لعلاج الفجوة بين الإخوان والإدارة الأمريكية التي تعارض التوريث وتعارض المنهج الحالي للإخوان في نفس الوقت. في الإصلاح الداخلي للإخوان قطع لدابر فكرة التدخل الخارجي، بالإضافة إلى أنّ إصلاح الإخوان يسهل الدعوة لرفع الحظر عنهم والإفراج عن المعتقلين من شتى التيارات السياسية مثل الدكتور العريان والدكتور أيمن نور وغيرهما، ويكف يد الأمن المصري عن التدخل في العمل السياسي، توطئة للدخول في عملية إصلاح سلمي في مصر تنقذها من الانفجار القادم.

٨ ـ الانفجار القادم هو الذي سيأتي بالتدخل الخارجي. في ظل الفوضى القادمة سيصرخ الناس أنفسهم يطلبون التدخل الخارجي فيأتي ليكون وبالاً عليهم.

٩ ـ وانظروا إلى انفجارات العراق.. لعلكم تعقلون..!!

الملحق السادس

الإخوان المسلمون والأقباط

محمد أحمد صبحي منصور

١ ـ أدين بالفضل في تكويني الثقافي إلى والدي الدكتور أحمد صبحي منصور والدكتور سعد الدين إبراهيم. بفضلهما عايشت منذ صغري الفكر المستنير في رواق ابن خلدون الأسبوعي حين كان يديره أبي ويغذيه الدكتور سعد بإسهاماته العلمية.

كانت ندوات الرواق الأسبوعية تتشابك بالنقد مع كلّ المحظورات السياسية والدينية، وأهمها موضوعان هما الإخوان المسلمون والأقباط.

٢ ـ من الندوات التي تأثرت بها في الرواق ندوة حضرها قادة حزب العمل بعد تحوله ليكون بوقاً للإخوان المسلمين. كان حزب العمل يقدم للرواق مشروعاً للدستور المصري في إطار دعوة الرواق في سنة (١٩٩٧م) لإصلاح الدستور المصري. كان من ضمن المتحدثين عن الحزب الدكتور حلمي مراد الوزير الأسبق والأستاذ الجامعي الأشهر وثاني شخصية في حزب العمل وقتها.

المفاجأة في مشروع الدستور الذي أعدّه حزب العمل وكتبه الدكتور حلمي مراد أنه أفرد باباً خاصاً في الدستور للأزهر. كانت مفاجأة أن يكتب

هذا العبث مفكر مصري بحجم وتاريخ الدكتور حلمي مراد بعد نصف قرن من تاريخ قضاه مدافعاً عن مصر العلمانية.

قال الدكتور أحمد صبحي منصور: إنّ إضافة باب للأزهر في هذا الدستور يؤكد أنّ الدولة المراد إقامتها هي دولة دينية وليست الدولة المدنية العلمانية وهو الثمن الذي يجب أن يدفعه كل من يتحالف مع الإخوان المسلمين حتى لو كان الدكتور حلمي مراد وحزب العمل اليساري السابق.

من وقتها فهمت أنّ تراث الأزهر هو المرجعية الحقيقية لفكر الإخوان ومنهاجهم السياسي.

٣ ـ ندوة أخرى تكلم فيها أبو العلا ماضي عندما أعلن انشقاقه عن الإخوان وإنشاءه حزب الوسط وضم إليه شخصية مسيحية مرموقة وهي الدكتور رفيق حبيب ابن الأستاذ صموئيل حبيب رئيس الكنيسة الإنجيلية.

حضر رفيق حبيب مع أبو العلا ومعهم جمال سلطان وآخرون من أعضاء حزب الوسط تحت التأسيس. كان برنامج الحزب غاية في الروعة، يذهل من يقرؤه من تسامحه و عصريته. قبل الندوة أعطى والدي برنامج الحزب لنا ـ نحن شباب الرواق ـ لندرسه ولنجهز أسئلة عليه للمتحدث.

قدمنا الأسئلة لأبي فلم تعجبه، قال: لا تسألوه عما كتب في برنامجه، بل اسألوه عما لم يكتب، وهو كيف سيتصرف مع الفكر الديني الذي يجعل الأقباط أهل ذمة؟ والذي يأمر بقتال غير المسلم حتى يسلم؟ والذي يمنع بناء الكنائس، اسألوه عن حد الردة، عن حد الرجم، كيف سيطبق حد السرقة.. إلخ.

قمنا بإعداد هذه الأسئلة وتوزيعها علينا. وبعد أن انتهى أبو العلا من عرض برنامجه السياسي وبعد أن انتهى حليفه المسيحي رفيق حبيب من التصديق على كلامه أعلن عن فتح باب الأسئلة وفوجئ أبو العلا بأنّ عليه أن

يجيب بصراحة على المسكوت عنه، حاول المراوغة فلم نعطه الفرصة، فنحن من الأزهر ونعرف مناهجه الدراسية وفكره وثقافته.

هاج أبو العلا واضطر لأن يقولها صريحة: إنّ الأزهر هو مرجعيته في كل هذه القضايا ولا يستطيع إنكار الشريعة التي يتمسك بها الأزهر.

عندها ظهر وجهه الحقيقي وضاع كل الكلام الجميل الذي ملأ به برنامجه. من وقتها وحتى الآن لا يزال أبو العلا ماضي ناقماً على والدي معتقداً أنّ أبي قد نصب له فخاً وأوقعه فيه.

٤ ـ إنني أنتمي لعائلة أزهرية عريقة. أبي وجدي وبعض أعمامي وأبناء أعمامي من شيوخ الأزهر وخريجيه.

ولقد أدخلني أبي الأزهر ومعي أخي شريف وقت أن كان في خلاف معلن مع الأزهر.

ودرسنا في الأزهر في كل مراحله الابتدائية والإعدادية والثانوية إلى أن تخرجنا في جامعته أنا وشقيقي شريف. وتزامن تعليمنا في الأزهر مع تكويننا الثقافي بصحبة أبي في معاركه ضد الفكر المتطرف والإخوان داخل مركز ابن خلدون وخارجه.

أي أننا كنا ولا نزال نجمع بين دراستين متناقضتين: الدراسة الأزهرية الظلامية والأفكار التنويرية.

ومن هنا أستطيع أن أتأمل ما ينتظر الأقباط إذا وصل الإخوان لحكم مصر لأنّ مرجعية الإخوان هي مقررات الأزهر التي درستها وتعلمتها وعايشت النضال ضدها.

٥ ـ لقد درسنا في الأزهر أنّ المسيحيين كفرة، وأهل ذمة يجب أن يدفعوا الجزية، أي أنهم مواطنون من الدرجة السفلى. فلا يمكن أن يلقى

المسيحي في بلاد المسلمين نفس المعاملة التي يلقاها المسلم. على سبيل المثال فإنّ المسلم إذا قتل مسيحياً لا يقام عليه القصاص، ولا يمكن للمسلمة أن تتزوج مسيحياً، ولا يمكن للمسيحي أن يرث أباه المسلم بينما يجوز لمن أسلم من المسيحيين أن يرث أباه النصراني.

وبينما يتم الاحتفال بالمسيحي الذي أسلم فإنّ المسلم يحكم عليه بالقتل إذا تنصّر.

هذا بالإضافة إلى فتاوى أخرى متفرقة يفهم منها استحلال دماء وأموال الأقباط والتأكيد على إذلالهم واضطهادهم وإلجائهم إلى السير في الحارات بدلاً من الشوارع وتضييق الطريق عليهم وعدم رد السلام عليهم.

هذه مجرد أمثلة لما درسناه في الأزهر.

وهناك تفصيلات أكثر في كتاب (فقه السنة) الذي كتبه الشيخ الأزهري سيد سابق، الفقيه الأشهر للإخوان المسلمين، وقد كتب مقدمة هذا الكتاب وأشاد به الشيخ حسن البنا نفسه.

ومن المعروف أن عبد الناصر كان يسمى الشيخ سيد سابق «مفتي الدم».

٦ ـ المرشد الأسبق للإخوان المسلمين صرّح مرة بضرورة فرض الجزية على الأقباط، ونادى بعدم تجنيدهم في الجيش، وقد أثارت تصريحاته ضجة. وهي تعبر عن حقيقة المنهج الفكري الأزهري للإخوان المسلمين. ولقد صبر الإخوان كثيراً على فرج فودة وهو يهاجمهم ويتحداهم بأن يقدموا برنامجاً سياسياً محدداً للحكم.

لكنه عندما بدأ ينتقد الفكر السني الأزهري ويتحدى الأزهريين علناً على صفحات جريدة (الأحرار)، وفي مناظرته الشهيرة بمعرض الكتاب سارعوا بالتخلص منه لأنه اقتحم قدس الأقداس وهو مناهج الأزهر التراثية.

٧ ـ لم يصل الإخوان للحكم بعد، ولكن تأثير ثقافتهم السلفية يتحكم الآن في الإعلام والتعليم والمساجد والشارع المصري، ولذلك فإنّ اضطهاد الأقباط قائم على المستوى الشعبي والرسمي.

والسؤال الآن عن المستقبل: ماذا سيحلّ بالأقباط إذا وصل الإخوان للحكم ليطبقوا شريعتهم السلفية الوهابية؟

من خلال ما تعلمته من الأزهر أقول الآتي:

(أ) - المحاكم الشرعية ستعود حتى لو تنكرت في ثياب مدنية.

وستكون خصماً للأقباط بحكم عقيدتها الوهابية السلفية الحنبلية، وستعتمد في أحكامها على الفقه السني الذي لا يزال يدرس في الأزهر. وسيعاونها في التطبيق لهذه الأحكام «الشهود» وفق نظم القضاء في العصور الوسطى الذي كان يعتمد على الشهود العدول، ويفسر العدالة في الشهود بمعنى أن يكونوا من أهل الثقة، باختصار أن يكونوا تابعين للسلطة والقضاء ينفذون أوامرها.

(ب) - أخطر ما سيعانيه الأقباط سيأتي من خلال «حد الردة».

قد يقال أنّ حدّ الردة لا شأن له بالأقباط، فهو عقوبة بقتل المسلم إذا ارتد عن الإسلام واعتنق ديناً آخر.

ولكن الصحيح أنّ هناك حيل كثيرة موجودة في الفقه السني في مجال ضخم اسمه فقه الحيل الذي كتبت فيه مئات المجلدات. ومن السهل بعثها من مرقدها في عصر تحكم الإخوان للكيد للأقباط باستعمال حد الردة ضدهم.

على سبيل المثال: يشهد اثنان من الشهود العدول أمام القاضي أنّ القبطي حنّا قد أعلن أمامهم إسلامه ونطق بـ«الشهادتين».

ويكتب الشاهدان العدلان محضراً رسمياً بذلك، وتصبح شهادتهما رسمية ومقبولة، إذا أنكر حنّا حدوث ذلك، أو إذا تمسك بدينه يصبح مرتداً ويتم قتله بعقوبة الردة، وتصادر أمواله كأيّ مرتد.

أيضاً قد يشهد الشاهدان أنّ فلاناً القبطي الذي مات وخلف ثروة هائلة قد أعلن أمامهما إسلامه قبل موته. عندها لا يجوز للورثة الأقباط أن يرثوا أباهم المسلم، وتؤول التركة للدولة.

أيضاً قد يشهد الشاهدان على أنّ فلانة القبطية قد أسرت لهما بإسلامها، وهي تخشى من أذى زوجها الذي لا يزال على مسيحيته، عندها لا بدّ أن تحكم المحكمة بالتفريق بين الزوجين لاختلاف الدين...

وأمثلة أخرى كثيرة في موضوع الأبناء والأرحام والثروة والأحوال الشخصية يمكن فيها استخدام حد الردة المزعوم لاضطهاد النصارى والمفكرين المسلمين أيضاً.

(ج) - وما فعله الوهابيون بمزارات الشيعة في العراق، وبمزارات آل البيت في الحجاز ليس ببعيد، فإذا كانوا يفعلون هذا بأماكن العبادة لدى المسلمين الشيعة والصوفية وهم أغلبية المسلمين فكيف سيتصرفون مع أماكن العبادة للأقباط وهم أقل عدداً؟

إنّ الوهابية السلفية المتشددة هي العقيدة الحقيقية للإخوان مهما حاولوا إخفاءها والتمويه عليها.

وعليه سينال الكنائس المصرية ضرر هائل إذا ما وصل الإخوان للحكم. هناك بعض آراء معتدلة في الفقه السني تجيز الإبقاء على الكنائس القديمة وتجيز تجديدها.

ولكن الفقه السني المتشدد الحنبلي الذي ينتمي إليه الوهابيون

والإخوان المسلمون يرى هدم الكنائس القديمة ومنع بناء أيّ كنيسة جديدة.

(د) - الآثار القبطية والفرعونية ستتعرض للإزالة باعتبارها أوثاناً لا بد من تدميرها.

وإذا كان النفوذ الإخواني قد نجح في تجاهل الحقبة القبطية من مقررات مادة التاريخ في التعليم المصري، فإنّ وصول الإخوان للحكم سيمكنهم من تدمير البقايا المادية لآثار هذه الفترة. ولنتذكر تدمير الطالبان لتمثال بوذا.

٨ ـ نأتي للسؤال الهام: ماذا نفعل؟

الجواب: هو الإصلاح عموماً، وإصلاح الأزهر على وجه الخصوص ليكون قلعة تدافع عن الأقباط في مواجهة الإخوان، وتؤكد من خلال الإسلام على حقوق الإنسان وحقوق المواطنة وحرية الفكر والمعتقد والعدل.

وهذا هو الطريق الذي نسير فيه نحن القرآنيين المسلمين.

إنني أدعو من خلال هذا المؤتمر إلى عقد مؤتمر خاص لإصلاح الأزهر لكي يكون حصناً حقيقياً يدافع عن الأقباط والديمقراطية والعدل والحرية.

الملحق السابع

حوار مع الدكتور احمد صبحي منصور

أجراه سامح سامي لموقع «الأقباط متحدون»

نظام الحكم في مصر بفساده وقمعه للحريات وتعذيبه وعجزه وترهله هو السند الأكبر للإخوان.

عندما سأل فرج فوده الإخوان: كيف يكون الإسلام هو الحل؟.. قتلوه، وبذلك قدموا الإجابة العملية المفحمة.

الإخوان يعتبرون الأقليات غير المسلمة داخل معسكر الإسلام رهائن في إطار الحرب المقدسة بين معسكري الإيمان والكفر.

كتب سامح سامي:

ما زال أصداء نمو وانتشار وتوغل جماعة الإخوان المسلمين في مصر، يثير الكثير من الجدل والتفاعل.

وما زالت هذه الجماعة فاعلة وناشطة رغم بعض الاعتقالات التي تمارسها قوات الأمن كرد فعل على ميليشيات الإخوان بالأزهر،

وما زالت هذه الجماعة تستخدم الدين في السياسة حتى عندما ادّعوا

أنهم ينوون إنشاء حزب سياسي لهم بعد التعديلات الدستورية الأخيرة التي ستمنع تأسيس أيّ حزب على أساس ديني.

الكل يتجه نحو الإخوان وما يفعلونه دون النظر إلى فكرهم ومرجعيتهم. هناك قلة بسيطة من المفكرين يهتمون بفكر الإخوان وخطابهم الديني المُسيَّس.

من هؤلاء الدكتور أحمد صبحي منصور رئيس «المركز العالمي للقرآن بواشنطن»، وأحد المضطهدين من سيطرة الأفكار الإخوانية التي توغلت في معظم المؤسسات، حتى أنها طالت جامعة الأزهر الشريف، التي معروف عنها أنها جامعة وسطية.

والدكتور أحمد صبحي منصور بالطبع غني عن التعريف، فهو دائم النشر في معظم المواقع الاليكترونية، وصاحب التاريخ النضالي المشرف الذي بسببه دخل السجن ولم يقف معه وقتها إلا الراحل المفكر فرج فوده...

لذلك أردت أن أجري معه حواراً حول جماعة الإخوان المسلمين وفكرهم ولماذا يربط بين هذه الجماعة والوهابية، وأسئلة أخرى..

(س): دعوت في إحدى مقالاتك أنه يجب على الإخوان تغيير وضعيتهم لكي يندمجوا في العملية الديمقراطية.. كيف؟

(ج): طرحت هذه الرؤية لإصلاح الإخوان المسلمين بقصد إحراجهم فقط، وأنا متأكد من رفضهم المطلق لأيّ إصلاح داخلي عقيدي أو سياسي ينتج عنه تغيير وضعيتهم العقيدية والسياسية.

هذا على المستوى العملي الواقعي.

أما على المستوي النظري التخيلي الذي يدخل في إطار التمنيات والينبغيات (أي ما ينبغي عمله) فأقول الآتي:

الإخوان المسلمون لهم حضور قوي في الشارع، وفكرهم الديني هو المسيطر على الإعلام والمساجد والنوادي والمصاطب، وهم الأقدر على الحركة بين الجماهير واستقطابهم، ولهم تاريخ طويل في العمل السياسي والشعبي منذ (١٩٢٨م).

كل ذلك يؤهّلهم للعب الدور الأعظم في تحقيق الجزء الأول من التحول الديمقراطي، وهو إرساء ثقافة الديمقراطية. لا يمكن إقامة ديمقراطية بدون إرساء ثقافتها أولاً، بأن يتعلم المواطن العادي ـ وليس مجرد المثقف ـ قبول الآخر والتعايش معه واحترام رأيه، والإيمان الحقيقي بحقوق الإنسان وحقوق المواطنة والدفاع عنها والجهاد في سبيلها باعتبارها جوهر الدين السماوي. بدون إرساء ثقافة الديمقراطية تتحول العملية الديمقراطية إلى فوضى وحرب أهلية كما يحدث في العراق الآن، وكما كان يحدث في أوروبا في قرون وعقود التحول الديمقراطي.

من الممكن تجنيب بلادنا ويلات هذا التحول الديمقراطي بالإسراع بالتخلص من ترسانة القوانين المقيدة للفكر والإبداع والمعوقة للحركة السياسية السلمية، وإنشاء هيكل تشريعي جديد يؤطّر لنظام مدني ديمقراطي غير مركزي في مصر تحت إدارة حكومة مؤقتة يقوم بتعضيدها كلّ القوى الحية في مصر، وعلى رأسهم الإخوان.

هذا طبعاً مجرد أمنيات وأحلام اليقظة..

وأرجو أن أكون مخطئاً، وأن يكون الإخوان على غير ما أتوقّع.

(س): إذن هذه الجماعة في حاجة إلى إصلاح من الداخل أو في حاجة إلى تفكيكها....؟

(ج): إصلاح الإخوان من الداخل عن طريق الإخوان أنفسهم ممكن جداً في أحلام اليقظة!! لا أتصوّر أن يتخلى الإخوان في هذه المرحلة عن

مكاسب أسسوها خلال عقود من التضحيات والآلام، وهم الآن المرشحون لوراثة النظام إن آجلاً أو عاجلاً، إن لم يحدث إصلاح حقيقي، الإخوان يستمدون قوتهم من كونهم ثقافة أكثر منهم تنظيماً، وأنّ هذه الثقافة ينشرها النظام الحاكم نفسه حين يتصور أنه يزايد عليهم بالتمسك بالفكر السلفي واعتباره وحده هو الإسلام، ولذلك يضطهد المفكرين المسلمين ويتهمهم بازدراء الدين، وهي تهمة مخففة من «حد الردة» نظام الحكم في مصر بفساده وقمعه للحريات وتعذيبه وإفقاره للمصريين وعجزه وترهله هو السند الأكبر للإخوان.

وفي الواقع كلاهما لا يستغنى عن الآخر، وضروري لاستمرار الآخر. ولا بد من التخلص منهما معاً إذا أردنا لمصر أن تنهض من كبوتها.

إلا أنني لا أؤمن بالحلول الأمنية واستعمال العنف، بل أؤمن أنّ العنف والحرب هما مشكلة أكبر. أعتقد بضرورة فرض الإصلاح السلمي من الخارج مع تأييد قوي من الداخل. إذا حدث الإصلاح انتهى الإخوان المسلمون لأنّ بقاءهم مرتبط بالفساد والاستبداد.

(س): وهل ترى أنّ سياسة النظام المصري الآن في التعامل الأمني مع الإخوان سليمة؟

(ج): بالقطع لا. إنها تفيد الإخوان على المدى القريب والبعيد وعلى كل المستويات.

خصوصاً مع عدم وجود أفق للإصلاح أو للتغيير إلى الأفضل. الإخوان يكسبون الآن أكثر مما مضى مع دخول المنطقة عصراً فاصلاً ستتغير فيه خريطة المنطقة. التعامل الأمني معهم يجعلهم شهداء اليوم وزعماء الغوغاء في الغد، وقد يتحكم الغوغاء كما يجري في العراق اليوم وتكون القاصمة..

(س): بوصفك رئيساً للمركز العالمي في واشنطن والذي يقود حركة

القرآنيين في العالم، ماذا يقوم المركز العالمي للقرآن الكريم في مواجهته مع الإخوان؟

(ج): بالإضافة إلى موقع «أهل القرآن» ودوره التنويري فإنّ المركز يعمل الآن جاهداً على عقد مؤتمر في واشنطن لمواجهة الإخوان والوهابية. المؤتمر المزمع عقده سيناقش مواثيق حقوق الإنسان الدولية من وجهة نظر إسلامية لإقرارها مرجعية للدستور المصري بدلاً من المادة الثانية المثيرة للجدل.

ويتمنى المركز العالمي للقرآن الكريم أن تتعاون معه كل منظمات حقوق الإنسان والتنوير في عقد هذا المؤتمر ومؤتمرات أخرى في مواجهة ثقافة التطرف والإرهاب للوهابية والإخوان.

(س): وهل يجدي مؤتمر واحد في مواجهة الإخوان المسلمين والوهابية بكل ما لهما من نفوذ؟

(ج): هي بداية حقيقية لمواجهة فكرية حقيقية. وهي خطوة على الطريق الصحيح، بعد أن ضاعت خطوات كثيرة وضلت الطريق.

(س): لماذا تستبعد أن يقبل الإخوان الديمقراطية وتداول السلطة؟

(ج): لأنّ الديمقراطية منتج غربي ملعون وكافر عندهم، ولأنها تناقض «الحاكمية» التي تخوّل لهم أن يحكموا «الرعية» باسم الله وتفويض منه على زعمهم.

ولأنّ وصولهم للسلطة ثم تخليهم عنها بالديمقراطية تأكيد على فشل شعارهم القائل بأن «الإسلام هو الحل»، لذا فتداول السلطة غير وارد على الإطلاق عندهم.

وهم بالطبع يتمسحون باسم الإسلام قائلين أنه هو الحل، ثم لا يقولون

كيف؟ وعندما سألهم فرج فوده: كيف؟ قتلوه، وبذلك قدموا الإجابة العملية المفحمة.

(س): ما الذي يمكن أن يقدمه الإخوان بفكرهم وأقوالهم لتقدم مصر وخير مصر؟

(ج): إذا تحول الإخوان إلى العمل التثقيفي والتنويري والدعوي لنشر ثقافة حقوق الإنسان والمواطنة من داخل الإسلام ـ كما يفعل القرآنيون مثلاً ـ فهو الجهاد الأعظم الذي يغفر لهم ما سلف من تدمير لسمعة الإسلام وسفك الدماء..

إن الله تعالى يقول عن المتقين المؤمنين ونعيمهم في الجنة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. العمل من أجل الوصول للسلطة السياسية والتحكم والعلو في الأرض بالاستبداد هو عين الفساد.

والمؤمن الحق لا يسعى لذلك مطلقاً، لذا فإنّ له الجنة في الدار الآخرة لأنه كان في حياته الدنيا لا يريد علواً ولا فساداً في الأرض.

باختصار فإنّ العاملين في المجال الديني قسمان: قسم يجاهد دفاعاً عن حق الله تعالى وحق العباد (أي حقوق الإنسان)، ودفاعاً عن العدل والحرية، وهو في جهاده ملتزم بالصبر والسلم وتحمل الأذى والغفران لمن يؤذيه، والأهم من ذلك أنه لا يسأل الناس أجراً طبقاً لأوامر القرآن بل إنه يبذل نفسه و ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى وأملاً في جنته.

ثم هناك صنف آخر يزعم أنه مختار من الله ـ زوراً وبهتاناً ـ ويريد أن يصل إلى التحكم في الناس باسم الله تعالى، و هو يرفض أن يكون مجرد

---

(1) القصص: ٨٣.

حاكم عادي يتعرض للمحاسبة والمساءلة، ثم يترك السلطة و يرجع شخصاً عادياً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، كلا.. إنه يريد أن يحكم باسم الله مستبداً متعالياً على الناس زاعماً أنه مسؤول عنهم أمام الله تعالى فقط يوم القيامة، فهم الرعية (أي المواشي والأنعام) التي يملكها، وهو مسؤول عنها يوم الدين فقط.

هذه هي «الحاكمية» التي يؤمن بها الإخوان في عقيدتهم السياسية، وهي ما كان سائداً في الخلافة العباسية وما تلاها وفي أوروبا العصور الوسطى. وإذا رجعنا إلى الآية الكريمة السابقة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. نجدها تضع فاصلاً بين نوعي المشتغلين بالعمل الديني.

أحدهما هو المجاهد الحقيقي في سبيل الله تعالى، والآخر هو العدو الحقيقي لله تعالى ورسوله ودينه.

ونحن ـ في أحلام اليقظة ـ نرجو أن يتوب الإخوان المسلمون عمّا سلف من جرائم في حق الإسلام والناس، وأن يتحوّلوا إلى عمل ثقافي إصلاحي سلمي بدون غرض سياسي ـ أي بدون أجر دنيوي ـ يبتغون به وجه الله تعالى.

فإذا فعلوا هذا فقد كفروا عما سلف. وأنصحهم لمجرد العظة والاعتبار أن يقرأوا الآية (٣٨) من سورة الأنفال.

(س): يقولون نحن نريد إنشاء حزب سياسي بمرجعية إسلامية.. مرجعية من؟ ومرجعية ما؟ وإسلامية من؟ وإسلامية ما؟

(ج): أنا كمشتغل بالفكر الإسلامي والجهاد في سبيل الإصلاح أقوم

---

[1] القصص: ٨٣.

بعمل سياسي مهم هو إرساء ثقافة الديمقراطية وهو جهاد لا بدّ منه لإقامة الديمقراطية.

العمل السياسي المحترم المبجل الذي نحتاجه الآن هو نشر الوعي سلمياً بين الناس ليعرفوا حقوقهم وليقفوا دفاعاً عنها حتى تتوقف ماكينة التعذيب والظلم، وحتى يتم التحول الديمقراطي بأقلّ خسائر ممكنة في البشر والموارد.

ليس هذا اتهاماً للعمل السياسي الآخر الذي يسعى للسلطة عن طريق إنشاء أحزاب، ولكن الذي يليق بمن يضعون أنفسهم في قائمة الأبرار ألا يهبطوا بأنفسهم إلى قاع التنافس حول حطام الدنيا..

ثم تكون الجريمة الكبرى أن يستغلوا اسم الإسلام العظيم سلاحاً في هذه الحرب السياسية الدنيوية لقاء متاع قليل وحطام دنيوي ضئيل.

المفجع أنّ المرجعية الإسلامية المزعومة التي يستندون إليها هي ثقافة الاستبداد والاستعباد والإرهاب التي سادت لدى المسلمين في العصرين العباسي والمملوكي.

ثقافة تقوم على الحاكمية أو الحق الملكي المقدس الذي كان في أوروبا العصور الوسطى، وتقوم على الراعي والرعية والخليفة الذي يملك الأرض ومن عليها، والذي يمارس الشورى بأن يستشير خدمه وجواريه والملأ الذي يتفنن في إرضاء نزواته.

كل ذلك التراث السياسي والتاريخ الذي عاشه المسلمون في عصر الخلفاء غير الراشدين مناقض للإسلام وعدله وتسامحه.

ولكن الوهابيين ومنهم الإخوان المسلمون يجعلون الإسلام هو هذا التراث وذلك التاريخ، ومن خلاله يحرفون معاني القرآن الكريم.

وحين يتحدثون عن مرجعيتهم الإسلامية فهم يقصدون ما قاله الماوردي وابن تيمية وابن خلدون قديماً، وما قاله سيد قطب وسيد سابق والمودودي في عصرنا.

وأؤكّد أنّ كلّ ذلك مناقض للإسلام. وكتاباتي كلها تثبت هذا. ومعظم كتاباتي منشورة على موقعنا «أهل القرآن»
http://www.ahl-alquran.com/arabic/main.php

وبالمناسبة فإنني أدعو كل العاملين في الإصلاح وحقوق الإنسان للكتابة في موقعنا أملاً في تدعيم حركة التنوير.

نحن نرحّب بكلّ من يكتب طالما لا يكتب ضد الإسلام كدين، ونحن نضع حداً فاصلاً بين الإسلام كدين والمسلمين كبشر، فيهم ما في البشر من حسنات وسيئات.

(س): وما تعليقك على الدعوة لإنشاء أحزاب دينية؟

(ج): النبي محمد ﷺ أنشأ أول وآخر دولة علمانية في تاريخ المسلمين، وفيها سبق لكل ما جاء بعدها في عصرنا الحديث من نظم علمانية ودعوات لحقوق المرأة وحقوق الإنسان والمواطنة. ولأنها دولة يرفضها الواقع السائد في عصرها فقد تمّ تدميرها شيئاً فشيئاً لتقوم على أشلائها دول للمسلمين على نسق الإمبراطوريات الرومية والفارسية.

ومع ذلك تبقى ملامح الدولة الإسلامية العلمانية في القرآن الكريم، إذا قرأناه قراءة موضوعية وفق مصطلحاته هو وليس بمصطلحات التراث الذي تم تدوينه في عصر الاستبداد والاستعباد والفساد.

الإسلام دين علماني، ودعوة الإسلام هي للجهاد ضد الكهنوت، والعدو الأكبر للإسلام هو الدولة الدينية خصوصاً تلك الدول الدينية التي تستخدم اسم الإسلام نفسه، وهي تتبع ديناً أرضياً مناقضاً للإسلام كالسنة

أو التشيع.

وكل دولة ديمقراطية ترعى العدل وحقوق الإنسان فهي دولة إسلامية.

وأبعد الدول عن جوهر الإسلام هي الدول الدينية الثيوقراطية المستبدة التي تقوم على كهنوت سياسي وديني.. وبالتالي فالإسلام يرفض إنشاء حزب ديني لأنّ ذلك يعني استغلاله في صراع دنيوي ينتج عنه تحريف معانيه والتلاعب بقيمه العليا في سبيل حطام دنيوي.

ومنذ أن أدخل المسلمون الإسلام في خلافاتهم السياسية تحوّلت أحزابهم السياسية إلى اختلاف في الدين، وتحوّل صراعهم السياسي إلى صراع ديني وانقسموا إلى طوائف دينية ومذهبية، إذا وصلت إحداها إلى السلطة قمعت غيرها وحكمت بكفرها.

لذا لا بدّ من منع التداخل بين العمل السياسي وبين الاستغلال الديني من حق كل إنسان أن ينشئ حزباً مدنياً يتعامل في السياسة بالسياسة وينافس الآخرين في القدرة على خدمة الناس بعيداً عن استغلال الدين واحتكاره باسم طائفة دون أخرى. لابدّ فعلاً من منع قيام أيّ حزب يزعم له مرجعية دينية.

كمسلم ملتزم لو أردت تكوين حزب ـ أعتبره إسلامياً ـ سأقول أن مرجعيتي هي العدل وحقوق الإنسان طبقاً لما جاء في المواثيق الدولية.

هذا في نظري جوهر الإسلام، وفي نظر خصومي أنه لا ضير من ذلك، ففي إطار حقوق الإنسان لا يوجد اختلاف بين الأحزاب المدنية الساعية للديمقراطية والإصلاح.

(س): هناك سؤال كثيرا ما يُطرح: هل يؤمن الإخوان بوجود وطن أم لا؟

(ج): يؤمن الإخوان والوهابية بما ساد في عصور السلف، وهو ما تقوم عليه مناهج التعليم في الأزهر والسعودية، وهو تقسيم العالم إلى معسكرين، معسكر الإسلام وهو «دار السلام» ومعسكر الكفر، وهو دار الحرب.

ويشمل معسكر الإسلام أو السلام كل بلاد المسلمين تأسيساً على أنها «الأمة الإسلامية» أو أنها «أمة محمد»، وقد ناقشت هذه الخرافات من قبل. المهم أنّ الولاء للوطن منعدم لديهم لأنه في حالة تقسيم العالم إلى معسكرين فالولاء للإسلام الذي يتخطى الأقطار، وبالتالي فإنّ المسلم في أمريكا تابع لهم ويتحدثون باسمه سواء رضي ذلك أم أباه.

وبالتالي أيضاً فإنّ الأقليات غير المسلمة داخل معسكر الإسلام يعتبرونها رهائن في إطار الحرب المقدسة بين معسكري الإيمان والكفر..

هذا ما كان سائداً في العصور الوسطى وحروبها الدينية، وكان يحدث خلال تلك الحروب اضطهاد هائل للمسيحيين الوطنيين، وكان يحدث في الدولة العثمانية أن يرتبط إعلانها الحرب على دولة أوروبية ما بسجن رعاياها المقيمين في السلطنة العثمانية.

هذه الثقافة استعادتها الوهابية، ونشأ عليها الإخوان، ولولا التقية لأعلنوها صباح مساء.

وسيعلنونها إذا وصلوا إلى ما يسمونه بالتمكين. وإذا راجعت خطابات الظواهري وابن لادن وجدت أن كلاً منهما يتحدث باسم الأمة الإسلامية كقائد لمعسكر الإيمان ضد معسكر الحرب.

وفي أدبيات المعارضة السعودية السلفية وما قاله المسعري تأطير للحرب الكونية بين المعسكرين لإقامة دولة إسلامية كبرى لها خليفة واحد تقابل الغرب وأمريكا والأمم المتحدة رمز الشر في اعتقاده.

(س): هل يرجع فكر الإخوان إلى إخوان آل سعود أم إلى السلطان عبد الحميد الثاني؟

(ج): التصوف السني كان الدين الأرضي للسلطان عبد الحميد الثاني والدولة العثمانية، وكانت الوهابية ودولتها السعودية (الأولى والثانية والمعاصرة فيما بين ١٩٠٢ إلى ١٩١٦) معادية للدولة العثمانية سياسياً ودينياً. عبد العزيز آل سعود المؤسس للدولة السعودية الراهنة فيما بين (١٩٠٢ـ١٩٣٢م) هو الذي اقتطع إقليم الأحساء التابع للدولة العثمانية اسمياً، وبذلك فازت السعودية بأعظم احتياطي للبترول يملكه في الحقيقة شيعة الأحساء والقطيف والمنطقة الشرقية.

عاون الإخوان الأعراب عبد العزيز في إقامة دولته، وبسيوفهم اكتملت الدولة السعودية بحدودها الحالية.

ثم ثار عليه الإخوان بزعامة فيصل الدويش وابن بجاد العتيبي وضيدان بن حثيلين، وخلال أعوام الصراع السياسي بينهم (١٩٢٥ـ١٩٢٩م) بعد فتح الحجاز وتحكم الوهابيين في موسم الحج أنشأ عبد العزيز مراكز مختلفة لنشر الوهابية في مصر، كان آخرها الإخوان المسلمون عام (١٩٢٨م) تعويضاً عن إخوانه النجديين الذين حاربهم وقضى عليهم فيما بين (١٩٢٩ـ١٩٣٠م).

هذه وقائع تاريخية شرحتها في كتاباتي وهي على موقع «أهل القرآن». ينتمي الإخوان فكرياً إلى الوهابية السنية المتشددة، بينما ينتمي عبد الحميد الثاني وتركيا الحالية إلى دين أرضي آخر هو التصوف السني، الذي يعترف بالآخر.

ولهذا فإنّ الحركة الدينية السياسية في تركيا تعترف بتداول السلطة خصوصاً وأنها عاشت ونشأت في عصر علمانية كمال أتاتورك، وتشربت

الاعتراف بالآخر.

ولم ينتج الإخوان فكراً جديداً. بل بفضلهم انتشرت كتب التراث الصفراء فأصبحت أكثر بياضاً وأشدّ تأثيراً، وقاموا بشرح ما قاله ابن عبد الوهاب وفقهاء نجد، وجاء شرحهم بأسلوب عصري أسهم أكثر في نشر الوهابية بين مثقفي الطبقة الوسطى والعليا، هذا هو الفكر الذي أعاد الإخوان تقديمه. حسن البنا مجرد منظم وقائد وليس منظراً على الإطلاق. كتاباته وأوراده لا تدخل في إطار الفكر، بل الوعظ، عبقريته كانت في التنظيم. والإخوان بعده مجرد تنظيمات دينها السمع والطاعة للقائد. هذا من حيث الشكل العام. أما من حيث الواقع السياسي فهم ثقافة وهابية تتغلغل بقوة النظم الحاكمة المسيطرة على الإعلام والحياة الدينية والثقافية والتعليمية. وهنا خطورة الإخوان.

إنهم ثقافة تنتشر وتفتح ذراعيها لتستقبل المحبطين واليائسين والمتذمرين من كل اتجاه.

ولا سبيل للقضاء على هذه الثقافة إلا بالإصلاح الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي.

(س): ما هو تصورك لحال مصر إذا حكمها الإخوان؟ وما مصير الأقليات العددية؟

(ج): ستنتشر ثقافة الموت وستنتشر معها المقابر الجماعية العلنية والسرية.

(س): أخيراً، لماذا ربطت بين حركة السيد البدوي ورفاقه بحركة الإخوان المسلمين؟

(ج): الحركات السرية التي تستخدم الدين الأرضي لها خصائص معينة بغض النظر عن الدين الأرضي الذي تستخدمه، سواءً كانت تصوفاً أو تشيعاً أو سنة. ومن الحركات ما نجح ووصل إلى تكوين دول مثل الدولة

العباسية والفاطمية ودولة المرابطين والموحدين.

ومنها حركات فشلت وظلت في إطار القناع الذي تتخفي به ومنها حركة السيد البدوي ورفاقه الشاذلي والدسوقي والمرسي.. فشلت حركتهم السياسية فتحولوا إلى آلهة وأقطاب في التدين الأرضي للتصوف السني. والتفاصيل في كتابي (السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة) الصادر سنة (١٩٨٢م).

وسننشره على الموقع قريباً..

فهرس